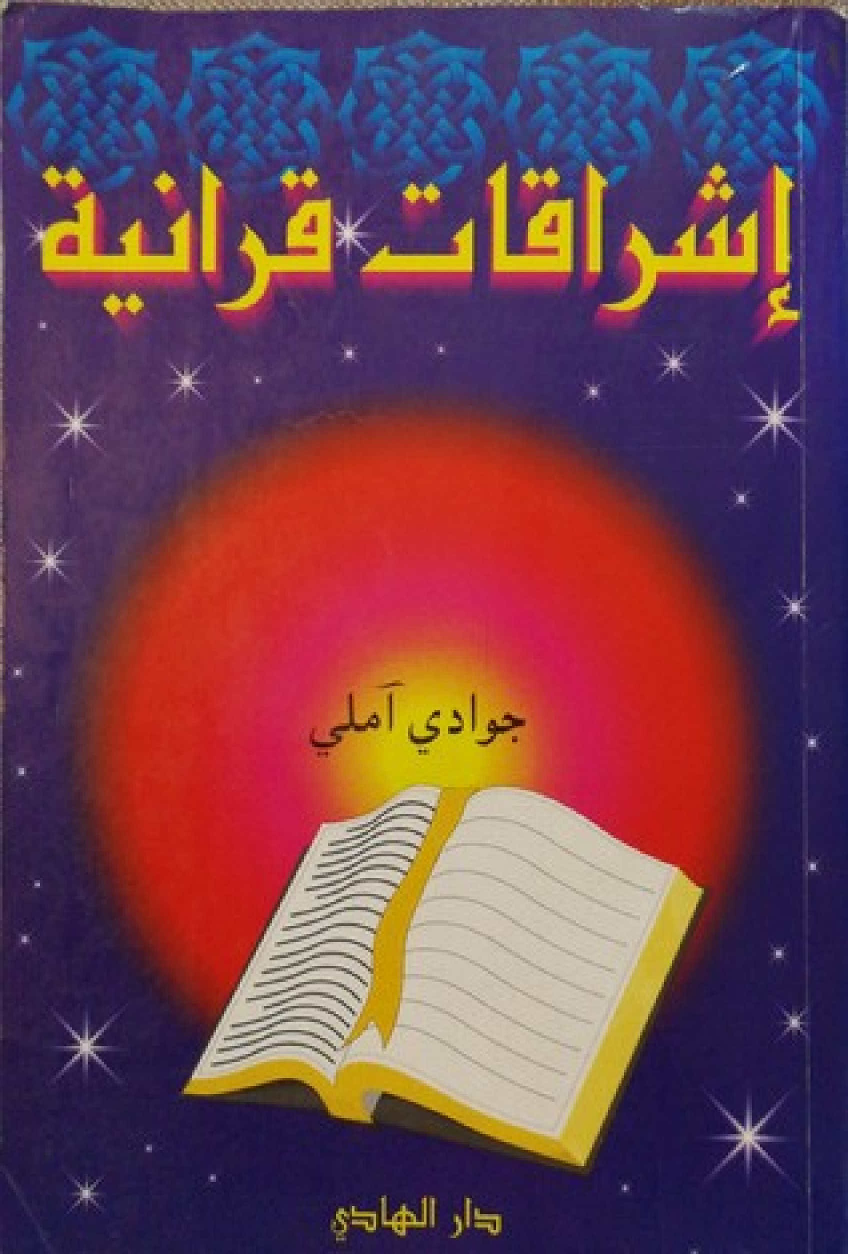

إشراقات قرآنية
جوادي آملي
دار الهادي

اشراقات قرآنية

تقريراً لدروس سماحة آية الله الاستاذ

الشيخ الجوادي الاملي -دام ظله-

ترجمة وتقرير

السيد محي الدين المشعل



دار الهادي

اشراقات قرآنية

بسم اللہ الرحمن الرحیم

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس: ٢٠٧٧٢-MCS ٢٢٥٩٧ بلاغ.

ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.

مقدمة التقرير:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ويخرجهم من الظلمات الىٰ النور باذنه، ويهديهم الىٰ صراط العزيز الحميد.

والصلاة والسلام علىٰ من دنى فتدلىٰ، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه الجليل ما أوحى، وعلىٰ آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وأنزل في فضلهم الآيات والسور، وفضلهم علىٰ جميع عباده تفضيلاً، وعلىٰ جميع الانبياء والمرسلين الذين استجابوا لربهم وبلغوا رسالاته، وسلم تسليماً كثيراً.

التعريف بهذه المقدمات التفسيرية:

تتكون هذه المجموعة من ثمانية وثلاثين درساً[١]، ركز الشيخ - حفظه الله - فيها على بيان مقدمتين مهمتين في علم التفسير وهما:

١ - طريقة تفسير القرآن بالقرآن.

٢ - صيانة القرآن عن التحريف.

أما طريقة تفسير القرآن بالقرآن فهي من أفضل الطرق وأسلمها، وأدقها في تفسير كتاب الله العظيم إذ أنها طريقة مأخوذة عن أبناء القرآن وتلامذته الحقيقيين وهم أهل البيت - عليهم السلام - الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وستجد نماذج متعددة لذلك في خلال البحث إن شاء الله تعالى.

وهذه الطريقة، وإن كانت معروفة، ومستخدمة في نصوص أهل البيت - عليهم السلام - إلا انه الذي استفاد منها استفادة كبيرة، وعممها على جميع مطالب القرآن الكريم وجعلها طريقة حية نابضة بالحياة هو العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ره) في تفسيره العظيم الميزان في تفسير القرآن وشيد اركانها، وحاول الاستفادة من الآيات في تفسير بعضها البعض، بدعوة أن القرآن نور، والنور لا يستضيء بغيره، وأنه

(١) اختصرت هذه الدروس بادخال بعضها في البعض الآخر فجعلتها تسعة، أربعة في المقدمة الثانية، وخمسة في المقدمة الأولى، كما أنني حذفت ما تكرر منها على ما تقتضيه طبيعة بيان الدروس بالكلام لا بالكتابة.

تبيان لكل شيء[١].

وجعلهـا طـريقة مـثلى ورائـدة فـي تـفسير كتـاب الله العـزيز، والاستدلال علىٰ المطالب العلمية المختلفة به.

وفي هذه الدروس يحاول آية الله الشيخ الأملي ـ حفظه الله ـ وهو من أبرز تلامذة السيد العلامة ـ ره ـ إبراز ملامح هذه الطريقة، وإقامة الأدلة التي يمكن أن تدعمها وتؤكدها، ودفع المشكلات التي يمكن أن تعترض هذه الطريقة، حتى تبقى هي الطريقة المـثلى، وهـي فـارسة الميدان في التفسير.

وربما يجد القاريء خلال مطالعته للبحث أن الشيخ ـ حفظه الله ـ يريد أن يقرر هذه الطريقة من خلال الاستفادة من ظواهر الأيات والتدبر والتأمل فيها بدون أن تحمَّل ما لا ينطبق عليها، وما لا يفهم منها بل أن الأمر يكمن في استنطاق الكتاب العزيز لانه مأدبة الله في الأرض.

ثم أنه ستجد بعض المناقشات العلمية لمن أنكر حجية الظواهر بشكل أو بآخر، ومنع من الاستفادة منها.

هذا بعض ما يتعلق بالمقدمة الأولى، وهي الطريقة الصحيحة في تفسير القرآن الكريم.

وأما صيانة القرآن عن التحريف فهي في الحقيقة مسألة تـمثل مشكلة علىٰ من يريد أن يستفيد من القرآن في الاستدلال علىٰ المطالب الكلية كالعقائدية، والاخلاقية، والاجتماعية، والحقوقية، وغيرها.

فلابد للمفسر من أن يقف ضد هذه المشكلة ويفندها، ويـظهر

---

(١) راجع مقدمة تفسير الميزان، ج ١ ص .

الاشتباه فيها، حتى يبقى الكتاب العزيز مورداً سائغاً للظمئى، وريـاً للعطشى لا يمنع من الاستفادة منه مانع ولا يحجب عن الاستفادة بأنواره حاجب.

وقد كتب في رد هذه الشبهة، وحل هذه المشكـلة الكـثير مـن العلماء والمفسرين، ومنهم السيد العلامة في ميزانه في ذيل قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.[1]

كما كتب في ذلك آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخـوئي ـ رحمه الله ـ في بيانه، وكذلك كل من بحث حجية الكتاب العزيز في علم الأصول حاول التصدي لهذه الشبهة وتفنيدها.

ومن المعلوم أن الاجماع قد قام علىٰ عدم القول بالزيادة في كتاب الله العزيز، ولكن وقع البعض من علماء الفريقين فريسة بعض الروايات الموضوعة والمرسلة والمقطوعة والتي تنسب النقيصة للكتاب العزيز ووقفوا عند ظواهرها واستفادوا منها تـحريف الكتـاب العـزيز بـهذا المعنى أعني النقيصة.

إلا أن الأمر علىٰ العكس من ذلك، فإن الذي يؤكده التحقيق هو صيانة الكتاب من التحريف زيادة ونقصاناً، وأن الأدلة الثـلاثة أعـني الكتاب والسنة والعقل قائمة عـلىٰ ذلک، وأن جـميع أدلة أصحـاب دعوىٰ التحريف مفندة وباطلة ومدخولة.

وفي هذه المقدمة يحاول الشيخ ـ حفظه الله ـ بحث هذه المشكة علىٰ ضوء ما كتبه صاحب الميزان ـ رحمه الله ـ من إقامة الدليل علىٰ

---

(١) سورة الحجر / ٩.

الصيانة، ودفع الشبهات علىٰ التحريف.

وهذا البحث وإن كان قد طرقه الكثير من العلماء والباحثين إلا أنني وجدت أن لا محيص لي من ذكره وتقريره لوجود بعض الفوائد العلمية فيه والتي قد تخلو منها الكتب الأخرىٰ التي بحثت هذا الموضوع، وعالجته.

وإني إذ أقدم هذا التقرير، فبالله وحده أملي وثقتي في أن ينفع غيري به كما نفعني به.

وأن يتجاوز عن خطيئتي، ويتقبل مني إنه سميع الدعاء قريب مجيب.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

السيد محي الدين المشعل



المقدمة الأولـــى

وفيها: دروس خمـــسة

الدرس الأول

القرآن العظيم هو الثقل الأكبر، والحـبل الالهـي المـمدود مـن السماء إلىٰ الأرض، الذي ينجو من تمسك به، ويهلك من يزيغ عنه.

وعظمة القرآن الكريم ليست إلا مظهراً، وجلوةً من عظمة الحي القيوم ووجهاً من وجوهه تبارك وتعالى.

والأشياء انما تكتسب العظمة الحـقيقية عندما تـقترن بـالقرآن العظيم، فشهر رجب إنما صار شهراً عظيماً لنزول القرآن فيه، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما بلغ إلىٰ هذا المقام الشامخ من العظمة والرفعة والعلو لأنه قد نزل عليه القرآن في شهر رجب.

وشهر رمضان عندما أراد أن يعرفه الحق تعالى، لم يقل بأنه الشهر

الذي كتب فيه الصيام، أو أنه الشهر الذي يحرم الافطار فيه، وانما قال: **﴿شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدىٰ والفرقان﴾**(١)

فنجد أن الله تعالىٰ قد عرف شهر رمضان بانة هو الذي نزل فيه القرآن، وجعل في هذا القرآن الكثير من المعارف والاحكام التي أحدها صيام شهر رمضان.

ولو لاحظنا العلوم الالهية جميعاً لوجدناها كلها كبيرة الفائدة، ولكن القرآن خصوصاً أعظمها نفعاً وأقدسها بحثاً، وإن الأنس بهذا الكتاب له حساب خاص، يختلف عن حساب العلوم الأخرىٰ.

فليسع الانسان لأن يحظى بأكبر قدر من العلم بالقرآن الكريم وليسع بكل جهده أن يحصل المقدمات التي تحقق ذلك من الكون على الطهارة عند التعامل مع القرآن ومحاولة التدبر والتفكر في آياته العظام، وحفظها، والعمل بها وغير ذلك من الموصلات الىٰ فهم القرآن.

وذلك لأن هذا الكتاب العظيم ليس من الكتب التي يتعامل معها الانسان لفترة وجيزة، ويقرأها في بعض الأيام ثم يتركها إلىٰ غير رجعة إليها. وإنما هذا الكتاب كتاب يجب علىٰ الانسان أن يكون في خدمته مدىٰ عمره، وبقدر ما يعمره الله تعالى، بحيث لو قدر له البقاء إلىٰ يوم

---

(١) البقرة / ١٨٥. شهر رمضان هو الشهر الوحيد المذكور في القرآن وهو تاسع الشهور العربية والانزال هو الاهباط الدفعي في مقابل التنزيل الذي هو التدريجي والآية عليها اشكال التنافي مع قوله تعالىٰ «وقرآناً فرقناه لتقرأه علىٰ الناس علىٰ مكث ونزلناه تنزيلاً» وأجيب عنه بعدة وجوه ـ ليس هنا محلها ـ وقوله هدىٰ للناس وبينات من الهدىٰ والفرقان الهدى للناس البسطاء والبينات للناس الخواص. راجع الميزان ـ ج ١ ص ١٤ وما بعدها.

القيامة لوجب عليه خدمة هذا الكتاب إلىٰ يوم القيامة أيضاً.

فإن هذا الكتاب معنا إلىٰ الأبد، وهو شفيعنا في يوم تزيغ القلوب والابصار ولا يسأل حميم حميماً، وإنه يظهر لنا في يوم القيامة في أجمل صورة يؤنسنا ويذهب وحشتنا، ويجعلنا في مراتب الانبياء والأولياء والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً.

وسنحاول إن شاء الله تعالىٰ في هذه المقدمات أن نتحدث حول القرآن الكريم بما يرجع الىٰ علومه، وكيفية الاستفادة منه، والتعرف عليه، وفهمه بالفهم المطلوب.

مقدمة

إذا وجد كتاب ما، وفي تخصص معين، لأجل طائفة من المختصين في موضوع هذا الكتاب، فإن واضع هذا الكتاب لا يلزم عليه أكثر من أن يؤلف الكتاب بالطريقة التي يستفيد منها أصحاب ذلك التخصص، ولا ضير عليه لو كان سواهم من الناس لا يفهمون ما كتب، ولا يستطيعون التعامل معه.

ذلك أن المحتاج الىٰ التعامل مع هذا الكتاب هو المختص دون غيره فيكفي أن يفهمه خصوص هذا المختص دون غيره من الناس كعلم الطب مثلاً. لأن جميع الناس ليسوا بحاجة للتخصص في علم الطب ولا ينبغي عليهم فهمه. وهذا هو شأن كل العلوم الدنيوية من العقلية والنقلية.

أما لو كان المراد من الكتاب المؤلف أن يكون كتاباً لكل البشرية من دون استثناء ولجميع الناس بلا فرق، لا يختص بطائفة دون أخرى، ولا بتخصص دون آخر فإنه لابد وأن يتوفر فيه أمران اثنان:

الأمر الأول: أن يكون لسانه لساناً بشرياً عالمياً، بحيث يفهمه جميع البشر، ولا يعجز أحد منهم عن فهمه.

الأمر الثاني: أن يكون نافعاً لكل الناس ومفيداً لهم، بحيث لا يمكن أن تنتفع به مجموعة دون أخرى، بل لا يمكن لأحد أن يدعي بأنه في غنى عن هذا الكتاب، وأن حاجاته يمكن أن تسد بكتاب غيره.

فالكتاب الذي كهذا يمكن أن يمثل له بأنه كالماء أو كالهواء، لا يمكن ان يستغني أحد عنه، بل لا يمكن لأحد أن يقول أنني لا أنسجم معه، ولا أرغب فيه. كما يقول عن الفواكه أننى لا أرغب في بعضها وأرغب في بعضها الآخر، وأنسجم مع بعضها دون الآخر، وإن كانت في نفسها جيدة.

فإذن هذا الكتاب لابد وأن يكون في نفسه جيداً ومهماً، وكذلك لابد وأن يكون للجميع ولا يستغني عنه أحد البته. مثل الماء الذي هو في متناول الجميع ولا يستغني عنه أحد.

وإذا اتضح هذا نقول: إن القرآن الكريم، الذي هو الوحي الالهي يدعي أنه قد جاء لجميع البشرية بدون استثناء حيث يقول:

﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾[1]

---

(١) إبراهيم / ١ وظاهر السياق عموم الناس لا خصوص قومه (ص) ولا خصوص المؤمنين

وهذه الدعوىٰ لازمها الأمران المتقدمان اللذان بيناهما وهما:

١ ـ انتفاع الكل به.

٢ ـ أن يكون الكل يفهمه.

وإذا كان لابد للناس جميعاً من فهمه، وأنه بلسان البشر جميعاً، فما هو المقصود من اللسان؟

هل اللغة العربية؟

طبعاً لا: لأن اللغة العربية بتفاصيلها، ودقائقها ابناؤها لا يعرفونها كذلك فضلاً عن الأعاجم.

وإذا كان كذلك فان القرآن سوف يكون ممتنع الفهم علىٰ الكثير من الناس الذين قد جاء القرآن لهدايتهم، واخراجهم من الظلمات إلى النور.

إذن فما هو المقصود من اللغة؟ وما هو المقصود من اللسان؟

والجواب علىٰ هذا التساؤل:

هو أن المقصود من اللسان هو الثقافة البشرية، وثقافة الناس جميعاً بدون استثناء. والذي نقصده بثقافة الناس جميعاً هو الثقافة المشتركة بينهم لاثقافاتهم مجتمعة.

وذلك لانه لكل قوم ثقافةٌ خاصةٌ بهم لا توجد بينها وبين ثقافة الأقوام الأخرىٰ خطوط مشتركة، فاللغة مختلفة، والاقليم كذلك.

منهم اذ لا دليل علىٰ التقييد من جهة اللفظ. وكلامه تعالىٰ صريح في عموم الرسالة، كقوله: «ليكون للعالمين نذيراً» الفرقان / ١، وقوله: «لأنذركم به ومن بلغ» الانعام / ١٩، وقوله: «إني رسول الله إليكم جميعاً» الأعراف ـ ١٥٨، راجع الميزان ج ١٢ ص ٦ ـ ٧.

والعادات والتقاليد، وجميع عناصر الثقافة نجدها لا اشتراك بينها من قوم لآخر.

ولكن الثقافة المشتركة هي ثقافة الفطرة التي عبرت عنها الآية بقوله تعالى:

﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم﴾(١)

وهذه الفطرة هي التي تمثل سنة الحياة والسبيل التي يجب على الانسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته.

وليس الانسان الذي يعيش في هـذه النشأة إلا نوعـاً واحـداً لا يختلف ما ينفعه وما يضره بالنظر الى هذه البنية المؤلفة من روح وبدن فما للانسان من جهة أنه إنسان إلا سعادة واحدة وشقاء واحـد فـمن الضروري حينئذ أن يكون تجاه عمله سنة واحدة ثابتة يهديه إليها هادٍ واحدٍ ثابت.

فلسان القرآن إذن هـو اللسـان الفطري الذي يـفهمه الجـميع ويحتاجه الجميع.

لذا فإن محتواه جاء لرفع حاجات الانسان الفطرية المشتركة بين جميع الناس وسد هذه الحاجات عندما تكون صادقة لا كاذبة.

وقد تحدث القرآن الكريم عن عالميته بقوله:

---

(١) الروم / ٣٠ فللانسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هو الانسان، وهي التي تدير رحى الانسانية مع ما يلحق بها من السنن الجزئية المختلفة باختلاف الأفراد، والأمكنة أو الأزمنة، أنظر الميزان ج ١٦ ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو، وما هي إلا ذكرىٰ للبشر﴾[١]

وكذا جاء في سورة أخرى:

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٢]

وكذلك جاء في أول سورة الفرقان قوله تعالى:

﴿تبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[٣]

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يبين العواقب لكل الناس في العالم، ولو كان الكتاب الشريف خاصاً بجماعة دون جماعة لما كان نذيراً لكل العالمين، والمقصود بالعالمين الذي في زمن الرسول (ص) ومن يأتي بعدهم إلىٰ يوم القيامة.

والمراد من العالمين في هذه الآية وبشهادة السياق الذي جعل فيه الانذار غاية للتنزيل هم المكلفون من الخلق، وهم الثقلان: الانس والجن وإن كان معنى العالمين علىٰ ما ذكره في الصحاح هو الخلق والجمع العوالم، والعالمون اصناف الخلقَ ونظيهر هذه الآية، وأصطفاك على نساء العالمين ـ آل عمران ٤٢ ـ، وكذا قوله وفّضلناهم علىٰ العالمين ـ الجاثية ١٦ـ، وهناك الكثير من الآيات الاخرىٰ الدالة علىٰ عالمية هذا الكتاب، وكونه لكل البشرية.

---

(١) المدثر / ٣١ ، قال العلامة في الميزان: وفي الآية دلالة علىٰ أن الخطابات القرآنية لعامة البشر أنظر الميزان ج ٢٠ ص ٩٢.

(٢) سبأ / ٢٨ كافة أي كافاً لهم عن المعاصي والهاء للمبالغة انظر الميزان ج ١٦ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٣) الفرقان / ١ راجع الميزان ج ١٥ ص ١٧٢.

وإذا ثبت هذا نقول بأن القرآن نزل بلسان يسير واضح ليس من قبيل الألغاز والمعميات والمبهمات من مصطلحات الفلسفة وغيرها، بل الجميع يفهمه وايضاً نقصد في المقام من اللسان هو الثقافة ونقصد بها الفطرة.

وفي بيان كون الكتاب الجليل سهلاً ميسراً، وواضحاً مفهوماً الكثير من الآيات، فمنها:

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾(١)

فالآية الكريمة عبرت عن الكتاب بأنه نور، والنور هو الظاهر بنفسه والمظهر لغيره فغيره محتاج إليه وليس هو محتاجاً لغيره.

غاية الأمر أن النور له درجات متفاوته قوية وأقوىٰ منها ويتفاوت الناس في ادراك هذه الدرجات بحسب طاقاتهم وقدراتهم، ولكن المسلّم وموضع الاتفاق هو أن النور يدركه كل أحد.

والقرآن كذلك توجد فيه بعض المعارف لايدركها إلا الأولياء، ولكن أصل القرآن يستحيل أن لا يدركه أحد إلا من طبع الله علىٰ قلبه.

وكيف لا يكون القرآن نوراً وهو من نور السموات والأرض فكل آياته نور وكل سورةٍ نور، ولا يمكن القول بأن الحروف المقطعة غير مفهومة لأن مرجعها راجع الىٰ هدف السورة التي ابتدأت بها وإن كانت الأقوال فيها تصل الىٰ عشرين قولاً. فمجرد أن يتضح المعنى الاجمالي

---

(١) المائدة / ١٥.

للسورة فإنة يتضح معنى هذه الحروف المقطعة.

وبالجملة فإننا بعد أن عرفنا بأن القرآن نور وهدى، وتبيان لكل شيء، فإن ادراكه لا يحتاج إلىٰ شيء سواه.

وقد جاء في آية أخرىٰ قوله تعالى:

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ (١)

وكذا جاء في قوله تعالى:

﴿فآمنوا بالله ورسوله، والنور الذي أنزلنا﴾ (٢)

وقال تعالىٰ في سورة أخرى:

﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ (٣)

وقال تعالىٰ في سورة النحل:

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة، وبشرى للمسلمين﴾ (٤)

فاذا كان القرآن تبياناً لكل شيء فكيف لا يكون تبياناً لنفسه، أليس هو شيء من الأشياء.

وإن قلت: بأن المعصوم «ع» يفسر لنا القرآن ويوضحه، فاحتجنا إلىٰ شيء غير القرآن.

---

(١) النساء / ١٧٤.

(٢) التغابن / ١٧٤.

(٣) الأعراف / ١٥٧.

(٤) النحل / ٨٩.

قلت: بأن نفس الارجاع إلىٰ المعصوم «ع» هو بأمر من القرآن الكريم.

وإذا كان القرآن لجميع الناس، وكلهم محتاجون إليه، وهو نور مبين واضح، ولسانه لسان الفطرة. فكيف يمكن لنا أن نفهمه، وكيف يمكن لنا تفهيمه الآخرين؟

والجواب علىٰ هذا السؤال نستفيده من نفس القرآن حيث يقول:

﴿ادع إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾(١)

فالحكمة التي هي البرهان العقلي للحكماء، والموعظة الحسنة ويدخل تحتها التمثيل للناس المتوسطين، وأما الجدال بالتي هي أحسن فهو للمتشددين والمجادلين.

وهذه الآية إذا لاحظناها فانها قضية منفصلة مانعة خلو لا مانعة جمع فبامكانكم استعمال الطرق مجتمعة أو احداهن.

ولنضرب مثالاً من القرآن علىٰ ذلك.

يقول تبارك وتعالى:

﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا﴾(٢)

هذه الآية بمجرد أن يطلع عليها الانسان المتوسط يذعن بالتوحيد، ونفي الشريك لأن هذا الدليل فطريٍ واضح.

وأما الحكيم المتأله فانه سوف يقول بأن هذه الآية تشكل قضية

---

(١) النحل / ١٢٥.

(٢) الانبياء / ٢٢.

شرطية، وهذه الشرطية لا تكون صادقة إلا بابطال التالي حتى يبطل المقدم ويتحقق المطلوب فيقوم ويبحث عما يبطل التالي ويجده في قوله تعالى:

﴿ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترىٰ من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1]

فإذا أبطل التالي فإنه يبطل المقدم عنده ويصل إلىٰ مطلوبه أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

فتحصل: أنه لا يوجد مطلب في القرآن ليس بواضح مطلقاً حيث يقول تعالى:

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر﴾[2]

---

(١) الملك / ٣-٤.

(٢) القمر / ٤ مرات (١٧ ـ ٢٢ ـ ٣٢ ـ ٤٠).



الدرس الثاني

لما كان القرآن العظيم كتاباً عالمياً، كان حقاً على الله تعالى أن لا يخلق الانسان بطريقةٍ يعسر -معها- عليه فهم القرآن، أو يمتنع، بل لابد من كونه قادراً على معرفة هذا الكتاب.

كما أنه حق على الله تعالى ان لا يترك فرصة سانحة لأحد بأن يتصرف في هذا الكتاب بحيث يجعله كتاباً لا تفهمه إلا فئة خاصة، ومجموعة معينة.

لذا فإنه تبارك وتعالى يقول:

﴿ونفس وما سواها، فألهما فجورها، وتقواها﴾(١)

فجعل الهام الفجور والتقوى نفس المعرفة، وجعل الالهام متفرعاً على التسوية، وهذه الخلقة المستوية والصحيحة هي القادرة على فهم الكتاب العزيز، وهي خلقة كل الناس.

كما أنه تبارك وتعالى يقول في مقام عدم امكان تصرف أحد في الكتاب العظيم بتحريفه أو تغيره:

---

(١) الشمس / ٧ـ٨.

﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[1]

ونستلخص من هاتين الآيتين أن الله تعالىٰ لم يخلق أحداً لا يستطيع أن يفهم القرآن، ولم يجعل الفرصة سانحة لأحد لكي يحرف القرآن فلا يفهمه إلا أناس خاصون بعد ذلك.

ثم أننا لكي نؤكد هذه الدعوىٰ أكثر فأكثر، وهي أن هذا القرآن يفهمه الجميع ولا يعسر علىٰ أحد فهمه نشير إلىٰ مسألتين:

المسألة الأولى: دعوة القرآن جميع الناس لكي يتدبروا فيه.

المسألة الثانية: تحدي القرآن للجن والإنس بأن يأتوا مثل هذا القرآن.

ولازم هاتين الدعوتين كون القرآن يفهم ما لديهم، أو مفهوماً لديهم غير مستعص عليه، وإلا كيف يطلب منهم التدبر في شيء لا يمكن لهم فهمه.

أو كيف يمكن أن يتحدون بشيء هم لا يفهمونه.

وبما سبق يظهر لنا بأن التحدي ليس ناظراً إلىٰ الناحية البلاغية في القرآن كما ذهب إليه بعض وانما هو شامل لكل النواحي الاعجازية بلا تفاوت، وإلا لكان الأعجمي أو الجن الذي دعتهم الآية إلىٰ الإتيان بمثل هذا القرآن مكلفون بشيء هم لا يقدرون عليه.

فدل ذلك علىٰ أن التحدي بنفس محتوىٰ القرآن لا بخصوص بلاغته أو بخصوص ناحية من نواحيه، مما يستلزم أن يكون القرآن

---

(١) فصلت / ٤١ ـ ٤٢.

مفهوماً قبل كل شيء لدىٰ المتحدىٰ به.

نعم، البلاغة إحدىٰ المسائل التي يتحدىٰ بها القرآن كما حاول البعض أن يقيد بها قوله تعالى:

﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا علىٰ عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[١]

وإن كان بعض المفسرين جعل الآية الكريمة تتسع لاكثر من هذا الجانب ولكن قوله تعالى:

﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[٢]

فواضح من الآية أن التحدي عالمي لا يشمل قوماً دون آخر ولا يختص بالثقافة العربية دون غيرها.

وأما بالنسبة إلىٰ ما يرجع إلىٰ الدعوة أو المسألة الأولىٰ فإنه قال تعالى:

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها﴾[٣]

وأم هذه منقطعة بمعنى بل تشير أن الناس عندهم القدرة على أن يتدبروا في القرآن ويفهمونه، لكنهم بأنفسهم يجعلون أغشية على قلوبهم وعلىٰ أبصارهم تحول دون أن يفهموا هذا الكتاب.

وذلك لأنهم يبدلوا فطرة الله التي فطرهم عليها فلا يفهمون دينه

(١) البقرة / ٢٣.

(٢) الاسراء / ٨٨.

(٣) محمد / ٢٤.

ولا كتابه، أما لو بقوا على فطرتهم السليمة لما عاقهم عن فهم الكتاب العزيز شيء.

ثم أن الله تبارك وتعالىٰ أشار إلىٰ النعم التي أنعم بها علىٰ الانسان كما جاء في سورة الرحمن وجعل أول نعمة من هذه النعم هي تعليمه تبارك وتعالىٰ للقرآن فقال:

﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الانسان، علمه البيان﴾ (١)

فجعل نفسه المطلقة المعلم الأول لكتابه الكريم، وجعل التعليم فيضاً من هذه الرحمة حيث عقبه علىٰ كلمة الرحمن، وجعله أي تعليم القرآن أولاً وقبل كل شيء.

وتعليم القرآن في هذه الآية لا يختص بالنبي صلى الله عليه وآله وسّلم، بل هو شامل لجميع الناس والملكلفين لذا فإن خطابات القرآن الكريم منها ما هو للرسول صّلى الله عليه وآله وسّلم، وقد جاء بلفظ «قل»، ومنها ما هو للمؤمنين، وقد جاء بلفظ «يا أيها الذين آمنوا» ومنها ما هو لجميع الناس وقد جاء بلفظ «يا أيها الناس».

فلو لم يكن الناس يفهمون القرآن لماذا يخاطبهم، وبماذا يخاطبهم؟

وقد جاء في آداب الآيات التي فيها نداء بياأيها الذين آمنوا أن يقول الانسان لبيك لأنه يسمع كلام الله فعلاً، ولأنه يفهم ما يقول له تعالى:

ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك قوله تعالى:

---

(١) الرحمن / ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤.

﴿وإن أحد من المشركين أستجارك فأجره حتَّى يسمع كلام الله﴾[1]

الذي هو بالفعل كلام الله، ولو لم يكن القرآن مفهوماً فكيف يطلب الحق تعالىٰ اسماعه للناس.

فالله تبارك وتعالىٰ ـ وكما جاء في سورة الرحمن ـ هو المعلم المطلق، وقد جعل رسوله صَلى الله عليه وآله وسَلم موضحاً لبعض الآيات ومبيناً لها، لأن القرآن له بواطن، وله درجات متعالية ولكننا أولاً وقبل كل شيء نفهم ما يقوله معلمنا الأول، وهو الله تبارك وتعالى.

فالقرآن كما قلنا نور، ولا يوجد فيه ما هو مظلم، إذ كيف يوجد الظلام في النور غاية الأمر أن الرسول صَلى الله عليه وآله وسَلم قد بين بعض الآيات من قبيل أيات الصلاة والزكاة والصوم وغيرها.

قال تعالى:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[2]

فوظيفة النبي صَلى الله عليه وآله وسلّم إضافة إلىٰ التلاوة، هي وظيفة التزكية والتعليم قال تعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلواْ عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال

---

(١) التوبة / ٦.

(٢) النحل / ٤٤.

مبين﴾ [١]

فالقرآن كما قلنا واضح وميسر للفهم، وربما احتاج إلىٰ تعليم بعض حدود الآية التي لم يذكرها الله في الكتاب، وانما أراد لنا أن نرجع إلىٰ رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مقام استيضاحها واستبيانها، وهو ـ أي القرآن ـ نفسه قد أرشدنا بذلك قائلاً:

﴿ما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [٢]

وإلا فإن القرآن في نفسه، وكما قال عنه تعالى:

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ [٣]

فهو هدىٰ ورحمة لكل العالمين، وكل من كان أصفى فطرة، وأكثر فكر فانه يحظى بفهم أكبر، ولا يحق لأحد أن يحمل القرآن آراءه وأفكاره بل يجعل القرآن شفاءاً له، ومصححاً لهذه الأراء والأفكار التي يحملها معه.

وحيث أننا وصلنا إلىٰ هذا المقام فيجدر بنا أن نوضح أفضل الطرق، وأسلمها في فهم هذا الكتاب العزيز فنقول:

إن أفضل الطرق في فهم هذا الكتاب العظيم هي طريقة فهم القرآن بنفسه وتفسيره بآياته الكريمة، وهي ما يعبر عنها السيد الطباطبائي (ره) الذي هو ابن بجدتها بتفسير القرآن بالقرآن.

---

(١) الجمعة / ٢.

(٢) الحشر / ٧.

(٣) يونس / ٥٧.

ومفاد هذه الطريقة أنك ـ أيها المفسر ـ تتدبر في الآيات القرآنية، وتتفحص القرآن من أوله لآخره لكي تجمع جميع الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد أو عن ملازمات لهذا الموضوع، أو علل ومعلولات له أو مقارنات له بغيره، وما تعلق بالآية من قريب أو من بعيد، وبيانه هذه الأمور كلها ـ علىٰ فرص وجودها ـ تتضح لنا الآية التي نريد تفسيرها إذا لم نتمكن من تفسيرها منفردة علىٰ فرص كونها قد أوضحت المطلب بجميع قيوده وحيثياته هي بنفسها.

ونحن عندما ندعي بأن هذه الطريقة هي أفضل الطرق، لأن القرآن العظيم هو تبيان كل شيء فلا يمكن أن لا يكون تبياناً ونوراً لآياته.

وقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في بيان ذلك:

«كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه بعضاً ويشهد بعضه علىٰ بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله»(١)

وقد ورد عن ابن مسعود بأن:

«القرآن مأدبة الله في الأرض»(٢)

والمأدبة هي التي يأتي إليها الانسان بدون طعام من عنده أو شراب كذلك بل هي معدة، ومجهزة بكل ما لذ وطاب، وهو ما عليه إلا أن يأتي ليرفع جوعه وعطشه، ولسد بقية حاجاته لذا فإن القرآن الكريم لا يمكن لنا أن نحمله آراءنا وتفاسيرنا التي لاتتناسب وتفسير الآيات

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٣٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر / ابن الأثير قال فيها: يعني مدعاة، شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس لهم فيه خير ومنافع. ج ١ مادة (أدب).

وإلا فإن مثلنا عندما نفعل ذلك كمثل من يأتي الىٰ مأدبة معدة بطعام فاسد ويضعه مع الطعام الجيد اللذيذ.

الأدلة علىٰ تفسير القرآن بالقرآن:

الدليل الأول: «سيرة العقلاء»

إنعقدت سيرة العقلاء من البشر علىٰ أنهم عندما يجدون كتاباً يقرأونه من أوله لآخره يحاولون أن يجمعوا المطالب التي تكررت فيه، وبيان تأييد بعضها البعض، أو نقض بعضها للبعض الآخر، وكذلك المطالب التي كانت مجملة في مكان، وتفصيلها في مكان آخر، وهكذا وهذه سيرة مستمرة ومستقرة لدىٰ جميع العقلاء.

الدليل الثاني: «سيرة الاصوليين والفقهاء من المسلمين»

فإنهم في آيات الأحكام لا يأخذون باطلاق الآية أو عمومها. الا بعد أن يفحصوا عن مقيداتها ومخصصاتها، وناسخاتها، وحقيقتها ومجازها.

فإذا اعتمد ظهور لفظي لقرينة فإنهم يعملون بها، ولا يعملون بذي القرينة.

الدليل الثالث: «نفس القرآن الكريم»

فقد أرشدنا القرآن العظيم الىٰ التدبر في آياته، وطلب منا أن نتدبر

في الآيات مجتمعة لا منفصلة عن بعضها البعض، ولذلك قال تبارك وتعالى:

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[١]

فإن القرآن الكريم يدعونا هذه الدعوة حتى نعرف أنه على الرغم من نزوله في مدة ثلاثٍ وعشرين سنة وفي ظروف وحالات متباينة، بعضها في السلم، وأخرى في الحرب، وثالثة في الرخاء، ورابعة في الشدة، وغير ذلك، على الرغم من هذا كله فإن هذا الكتاب العظيم يقول لنا إجمعوا آياتي وقارنوا بين بعضها البعض، فلن تجدوا أي اختلاف ولا أي تناقص، بل سوف تجدون الانسجام والتعاضد بين الآيات، إذ أنه

﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾[٢]

فكذلك لا ترى في قرآن الله من تفاوت.

ويقول لنا القرآن أيضاً في آية أخرى:

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة، وبشرى للمسلمين﴾[٣]

فإذا كان هذا الكتاب موضحاً لكل شيء، أترى أنه يعجز عن توضيح آياته، ومطالبه فإذا ورد علينا مطلب في آية لم يكن واضحاً في نفس الآية فإن الآيات الأخر تتكفل توضيحه وتفسيره.

ويمكن أن نمثل له بقوله تعالى:

---

(١) النساء / ٨٢.

(٢) الملك / ٣.

(٣) النحل / ٨٨ ـ ٨٩.

﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾[١]

فهذه الآية جاء تفسيرها في سورة الحجر في قوله تعالى:

﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾[٢]

وهكذا في كل مطلب يحتاج إلىٰ بيانٍ.

الدليل الرابع: «سيرة المعصومين عليهم السلام»

فإنهم «ع» في استدلالاتهم، وفي احتجاجاتهم، يستعملون آية لتوضيح أخرى، والأمثلة في ذلك كثيرة.

منها:

في الكافي عن علي بن يقطين: قال: سأل المهدي أبا الحسن عليه السلام عن الخمر:

هل هي محرمة في كتاب الله عز وجل؟ فإن الناس إنما يعرفون النهي عنها، ولا يعرفون تحريمها فقال له أبو الحسن (ع): بل هي محرمة.

فقال: في أي موضع هي محرمة في كتاب الله عز وجل يا أبا الحسن؟

فقال: قول الله تعالى: **﴿إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾**[٣] والاثم والبغي بغير الحق إلىٰ أن قال: فأما الاثم فإنها الخمر

---

(١) الشعراء / ١٧٣.

(٢) الحجر / ٧٤.

(٣) الاعراف / ٣٣.

بعينها، وقد قال الله تعالىٰ في موضع آخر: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾[١] وإثمهما أكبر من نفعهما، فأما الاثم في كتاب الله فهي الخمر، والميسر، واثمهما اكبر من نفعهما كما قال الله تعالى.

فقال المهدي: يا علي بن يقطين هذه فتوىٰ هاشمية؟

فقلت له: صدقت يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت، قال: فوالله ما صبر المهدي أنه قال لي: صدقت يا رافضي.[٢]

منها: عن تفسير العياشي عن أبي جعفر «ع»، أنه سأله المعتصم عن السارق من أي موضع يجب أن يقطع؟

فقال: إن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فتترك الكف.

فقال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول الله «ص»:

السجود علىٰ سبعة أجزاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين فإذا قطع من الكرسوع أو المرفق لم يدع له يداً يسجد عليها. وقال الله: ﴿وأن المساجد لله﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها، فلا تدعو مع الله احداً وما كان لله فلا يقطع.[٣]

منها: في الفقيه باسناده عن زرارة، ومحمد بن مسلم ، أنهما قالا:

---

(١) البقرة / ٢٠٩ .

(٢) الميزان /ج ٢ ص ١٩٨، في تفسير آية يسألونك عن الخمر والميسر.

(٣) الميزان /ج ٢٠ ص ٥٨ ـ في تفسير آية: وأن المساجد لله فلا تدعو ...

قلنا لأبي جعفر «ع»: ما تقول في صلاة السفر؟ كيف هي؟ وكم هي؟ فقال: إن الله عز وجل يقول:

﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر.

قالا: قلنا: إنما قال الله عز وجل: ﴿فليس عليكم جناح﴾ ولم يقل افعلوا، كيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟

فقال «ع»: أو ليس قد قال الله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾

«ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؟ لأن الله عز وجل ذكره في كتابه، وصنعه نبيه، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وذكره الله تعالىٰ في كتابه[1]

منها: في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد، وابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدئلي قال: رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر، فسأل عنها أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقال علي عليه السلام، لا رجم عليها! ألا ترىٰ أنه يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وقال: ﴿وفصاله في عامين﴾ وكان الحمل ههنا لستة أشهر فتركها عمر. قال: ثم بلغنا أنها ولدت أخر لستة أشهر»[2].

والروايات في ذلك كثيرة ذكرنا بعضاً منها وفيها كفاية.

---

(١) الميزان ج ٥ ص ٦٥ في تفسير قوله تعالى: «وإذا ضربتم في الأرض..».
(٢) الميزان /ج ١٨ ص ٢٠٧ في تفسير الآية ١٥ من سورة الاحقاف.

فهذه الأدلة كلها شواهد صدق وحق علىٰ كـون تـفسير القـرآن بالقرآن من الطرق المثلي في تفسير الكتاب الكريم من بين جميع الطرق الأُخرى.





الدرس الثالث

إذا التزمنا بما تقدم من أن القرآن يفسر نفسه بنفسه ولا يحتاج إلى شيء يوضحه إلا نفسه فسوف تعترضنا ثلاث مشاكل، ولا بد من حلها لتحقيق سلامة الطريقة التي سوف نتبعها في تفسير القرآن بالقرآن، وإلا فإن هذه المشاكل معوقة لهذه الطريقة عن النجاح وهذه المشاكل الثلاث هي عبارة عن ما يلي:

المشكلة الأولى: روايات الثقلين

فإن هذه الروايات وصلت إلىٰ حد التواتر بين الفريقين الشيعة والسنة، وقد قرنت القرآن بالعترة من حيث وجوب التمسك بهما معاً، كما أنهما في نفسهما لن يفترقا حتى يردا علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الحوض.

ونحن قد ادعينا فيما سبق بأن القرآن لا يحتاج إلىٰ غيره في تفسيره، فماذا نصنع مع هذه الروايات؟ وهذه هي أولىٰ المشكلات.

المشكلة الثانية: أسباب النزول

فهي ما بين روايات منقولة عن الصحابة والتابعين وبين روايات منقولة عن المعصومين عليهم السلام تذكر لنا العلة التي من أجلها نزلت الآية الفلانية، أو السورة المعينة، وتفسر الآية بذلك السبب، فماذا نصنع مع هذه المشكلة أيضاً؟

المشكلة الثالثة: آراء المفسرين

فإن للمفسرين على اختلاف طبقاتهم، ومشاربهم وفئاتهم تفاسير مختلفة للقرآن الكريم وآراء وأقوال تحاول بيان آيات القرآن وتوضيح مقاصده ومداليله، فما هو موقفنا تجاه هذه التفاسير، ونحن نريد أن نجعل المفسر الوحيد للقرآن هو نفس القرآن لا غير.

أما المشكلة الأولى

وهي روايات الثقلين، فإنها ـ كما قلنا ـ تقرن الكتاب بالعترة، وتطلب التمسك بالأمرين معاً.

لكننا نسأل: هل ثبتت حجية قول المعصوم «ع» بهذه الروايات أعني روايات الثقلين؟

فالجواب هو نعم، ولكن نسأل مرة أخرى عن الأمر الذي به ثبتت حجية قول الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وجواب هذا السؤال هو: أن القرآن قد قال لنا:

﴿ما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[1]

وهنا نقول: لو لم نفهم آية ما آتاكم الرسول ـ بحسب ما يظهر منها ـ لما كان لنا الحق في أن نتعبد بكلام الرسول «ص» ونتعبد بكلام العترة من خلاله «ص».

وبهذا المقدار نستطيع أن نثبت أن القرآن يفهم بشكل مستقل في كل مطالبه، ومن ضمن مطالبه الآيات التي ترجعنا إلىٰ اتباع قول الرسول «ص» وعترته الاطهار «ع».

غاية الأمر أن آيات القرآن قواعد كلية، ومفاهيم عامة نفهمها في نفسها ولكن جزئياتها وحدودها، وتفاصيلها من خلال العترة الطاهرة ومن خلال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتم بيانها لنا، وهذا ليس تفسيراً، وانما هو تبيين فقط وإلا فالآيات في نفسها وبضم بعضها إلىٰ البعض يتضح معناها ويتجلى، وأما ما يتعلق ببيان الجزئيات فإن القرآن الكريم يقول:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[2]

فإذا جاءنا أمر في القرآن كقوله تعالىٰ «أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، ولله علىٰ الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا»، وغيرها من الآيات فإنها واضحة عندنا، ولكن عندما نضم هذه الآيات مع قوله تعالى ما آتاكم الرسول فخذوه نجده صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول:

---

(١) الحشر / ٧.

(٢) النحل / ٤٤.

«صلوا كما رأيتموني أصلي»[١]

ويقول صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«خذوا عني مناسككم»[٢]

فهذه المسائل لا تعد تفسيراً للكتاب ولكن في مقام العمل بالآيات الكريمات قد اعطانا القرآن الكريم دستوراً عظيماً، وهو الرجوع للعترة الطاهرة.

وعليه، لو لاحظنا ظواهر الكتاب العزيز بالنسبة إلىٰ ظواهر الروايات المعصومية لوجدنا أن العلاقة طولية بينها لأن ظواهر القرآن ترجع إلىٰ كلام الله الذي هو حجة بذاته كما أن الله تبارك وتعالىٰ قائم بذاته وموجود بذاته.

وأما الروايات المعصومية فانها حجة بالقرآن فروايات الثقلين إنما دلت علىٰ أن العترة في مقام العمل لا تنفك عن القرآن البته، وأنها هي المبينه له لا المفسرة لظواهره، وأنها هي التي يجب أن تتبع في مقام العمل بالآيات لأن القرآن هو الذي امر باتباعها وقبول ما تقول.

ولكي نؤكد دعوىٰ أن القرآن يفسر بعضه بعضاً وأنه مستقل في فهمنا له هو الروايات الكثيرة المتواترة في عرض كلام المعصومين «ع» علىٰ الكتاب العزيز فإن اتفقت معه فيؤخذ بها وإلا فتطرح مما يؤكد لنا

---

(١) راجع تفسير القرطبي /ج ١ / ص ١٧١ ـ أخرجها عن البخاري: باب ما جاء في اجازة خبر الواحد: ٩ / ١٠٧.

(٢) راجع تفسير القرطبي /ج ٢ / ص ١٨٤ ـ في تفسير قوله تعالى: ان الصفا والمروة ـ الآية في المسألة التاسعة.

من جديد أن حجية الروايات لا تتم الا عبر إعطاء القرآن لها هذه الحجية.

وروايات العرض إذا راجعناها نجدها عامة آبية عن التخصيص لأنها ترسم لنا قاعدة عامة في تثبيت حجية الروايات مطلقاً فلا تتخصص.

وإنما التزم المعصومون بذلك لكثرة الكذب عليهم «ع»، وكثرة الوضع من الوضاعين الذين بلغ ما وضعوا من الأحاديث الآلاف المؤلفة.

كيف وقد اختلقوا من الصحابة الموهومين المئات والعشرات، فإن الله هو العالم بعدد ما وضع من الأحاديث.

أما الكتاب العزيز فانه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الذكر الذي تعهد الرحمن بحفظه فلا يقدر أحد على الدس فيه ولا الوضع أو التزوير.

ولهذا فلابد من عرض الروايات على هذا الكتاب العظيم حتى نعرف صحيحها من سقيمها.

ونقول في المقام إذا سلمنا بهذه القاعدة العامة، وهي عرض الروايات على الكتاب فنسأل: هل يمكن عرض روايات على كتاب لا نفهمه إلا بالروايات؟

فإذا كنا نريد أن نثبت صحة هذه الروايات بالقرآن وهل من المعقول أننا نفهم القرآن أولاً بها واذا أتضح معنى الآيات نقوم ونعرض هذه الروايات على الكتاب فإن كانت موافقة لمعناه أخذنا بها وإلا فلا.

فإن هذا الكلام يحمل بين طياته الدور الصريح الذي يثبت لنا

حجية الروايات بالروايات الذي لا يمكن لنا قبوله بحال.

وإن قلت بأن روايات العرض إنما هي مخصوصة بالروايات العلاجية التي تستخدم في مقام التعارض بين الأحاديث لا مطلقاً.

قلت لك: بأن الروايات في الباب مطلقة وعامة وأبية عن التخصيص وإليك بعض منها:

الحديث الأول:

«قال الصادق عليه السلام، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نور، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[1]

فالرواية الشريفة تجعل الحق الأصل هو الذي يعرف به ما ليس بالحق، وكل أمر حقيقي وواقعي فإنه عليه نور، وهو الامر الصواب. والتفريع بالفاء في قوله فما وافق ... الخ معناه أن الروايات التي تصلكم عنا إنما تكون حقاً عندما تعرضونها على الحق الذي هو القرآن. وانما تكون نوراً عندما تعرضونها على النور الذي هو القرآن.

وواضح بأن هذه الرواية ليست في خصوص الأحاديث العلاجية، وإنما هي مطلقة.

وربما توجد بعض الروايات غير واضحة المعنى عندنا أو توجد فيها معارضة للقرآن الكريم، فهذه الأخيرة يمكن ردها بحسب القاعدة الكلية، ويمكن أن نرجع علمها إلى أهلها من باب التأدب، واستصغار

---

(١) الكافي ج ١ باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب. كتاب فصل العلم ص ٦٩ الحديث الأول. ط بيروت ـ دار التعارف.

القدر[١] أمام كلمات المعصومين عليهم السلام.

ومن ضمن هذه الروايات:

أنه لما ولد الحسين عليه السلام أمر الله جبرئيل عليه السلام أن يهبط في ملأ من الملائكة، فيهنين محمداً (ص) فهبط، فمر بجزيرة فيها ملك يقال له فطرس بعثه الله تعالىٰ في شيء فأبطأ فكسر جناحه فألقاه في تلك الجزيرة، فعبد الله سبعمائة سنة فقال فطرس لجبرئيل عليه السلام: إلىٰ أين؟ قال: إلىٰ محمد (ص)، قال: فاحملني معك إليه لعله يدعو لي، فلما دخل جبرئيل وأخبر محمداً بحال فطرس قال له النبي (ص): قل له يمسح بهذا المولود جناحه فمسح فطرس بمهد الحسين «ع» فأعاد الله تعالىٰ في الحال جناحه ثم ارتفع جبرئيل إلى السماء[٢]

وهذه الرواية فيها ما يتعارض والقرآن الكريم حيث أن الرواية نسبت المعصية للملك (ع) مع أن القرآن الكريم قد نزه الملائكة عن الخطأ في قوله:

﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[٣]

وحيث أن مقام أهل البيت «ع» مقام نحن لا نفهمه لا نرد هـذه الرواية تأدباً بل ترجع علمها الىٰ أهلها[٤]

---

(١) قدر النفس.

(٢) اثبات الهداة بالنصوص والمعجوات / الحر العاملي /ج ٢ / ص ٥٨٠ ، ينقلها عن كتاب الخرائج والجرائح للقطب الراوندي.

(٣) التحريم / ٦.

(٤) والظاهر من المعصية هو نفس ابطاء الملك وإلا فلم تصرح الرواية بمعصية فطرس.

الحديث الثاني:

«عن الصادق عليه السلام قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فخذوه، وإلا فالذي جاءكم به أولى به»[١]

فإن هذه الرواية قالت بأن الذي جاءكم بالحديث هو الذي ينبغي عليه أن يعمل بهذا الحديث وأن يأخذه.

الحديث الثالث:

«عن الصادق عليه السلام قال: كل شيء مردود الى الكتاب والسنة وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»[٢]

وهذه الرواية أولاً ذكرت الكتاب والسنة، وبعدها جعلت عدم الموافقة بالنسبة لكتاب الله تعالىٰ فقط.

الحديث الرابع:

«عن الصادق عليه السلام قال: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»[٣]

الحديث الخامس:

«عن الصادق عليه السلام قال: خطب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بمنى فقال:

---

(١) الكافي ج ١ ـ نفس الباب السابق، ص ٦٩.

(٢) الكافي ج ١ نفس الباب السابق ـ ص ٦٩.

(٣) نفس المصدر.

أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»(١)

ومن مجموع هذه الروايات اتضح لدينا بأنه لابد من كون القرآن الكريم واضحاً في نفسه أولاً ونحن نفهمه ونعرف مراداته، ومن ثم نعرض عليه هذه الروايات لنصححها.

وبالرجوع إلىٰ حديث الثقلين نستنتج بأن العمل لابد وأن يكون لهما معاً، ولكن الفهم يمكن أن يكون مستقلاً وهذا ما نستفيده من روايات العرض.

ويتحصل بالنتيجة أن القرآن هو الأصل والمبدأ والروايات هي الفرع ثم أن القرآن هو المرجع لهذه الروايات مرة اخرى.

فالقرآن هو الأصل بلسانه وبلسان الروايات وهي الفرع بلسانها وبلسان القرآن الكريم.

ثم أننا لو لاحظنا المسألة من جهة اخرىٰ فلنا أن نقول: بأن الدين لابد وان يكون معتمداً علىٰ امورٍ وأشياء قطعية لا ظنية، فإذا كان اعتمادنا علىٰ خصوص الروايات فإنها بأبعادها الثلاثة أعني الصدور، والجهة، والدلالة، ظنية بينما الكتاب الكريم قطعي الصدور والجهة.

وتبقى مسألة الدلالة وهي مع كونها ظنية إلا أننا نستطيع أن نخفف من هذا الظن ونوصله إلىٰ اليقين أو قريباً منه، وذلك بارجاع المتشابة للمحكم، والمنسوخ للناسخ والظاهر للنص أو للأظهر والمطلق للمقيد، والعام للخاص، وهكذا.

---

(١) نفس المصدر السابق، وهذه الاحاديث الخمسة كلها في نفس الصفحة.

وإن قلت: بأننا يمكننا أن نجمع الروايات بعضها مع البعض ونصل الىٰ نفس النتيجة التي وصلت إليها من خلال جمع الآيات.

قلت لك: بأن جمع الظني إلىٰ الظني لا يفيد الا ظناً ثالثاً ليس إلا، لأن الاسانيد والجهات في الروايات تبقى ظنية لقلة المتواتر والمحفوف بالقرائن من بينها.

نعم يمكن الاعتماد علىٰ الروايات الظنية في مجال التكاليف الجزئية من قبيل الشك والسهو وغير ذلك من الفروع.

وأما الأصول الكلية للدين فلابد فيها من الاعتماد علىٰ اليقينيات والنصوص، وهو ما يتكفل به القرآن الكريم دون السنة الشريفة فإنها قابلة للوضع، والزيادة والنقصان ولكن الكتاب ليس كذلك.

لذا فقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً وفهماً ووهماً ولقد كذب علىٰ رسول الله (ص) علىٰ عهده حتى قام خطيباً.

قال: ايها الناس قد كثرت علي الكذابة فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ثم كذب عليه من بعده ـ الحديث ـ»[١]

والكذّابة بالتشديد بمعنى الجماعة الكاذبة، وبالتخفيف بمعنى الروايات الكاذبة وهو أفصح كما ذهب السيد الداماد إليه في شرح أصول الكافي.

---

(١) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة «٢١٠» / ص ٣٢٥. ثم كذب عليه من بعده غير موجودة في النص.

وقد نقل عن العلامة (ره) بأن هذا الحديث إن كان صحيحاً فهو المطلوب وإن كان كذباً فقد كذب على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم به.

فعلى كل حال الكذب على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قد تحقق، وكذلك الكذب على أهل البيت «عليهم السلام» كما صرحوا هم أنفسهم بذلك، وكما صرح بعض أعداءهم كابن أبي العوجاء وزنادقته ولسنا في معرض الحديث على مسألة الدس والكذب في الأحاديث لأنها تخرج بنا عن غرضنا الأساس وهو التفسير، فمن أراد التوسع فليراجع كتاب:

١ ـ معرفة الحديث.

٢ ـ خمسون ومائة صحابي مختلق.

وحيث أننا قد ذكرنا بعض الأحاديث التي تأمر بعرض الحديث على الكتاب العزيز فإن هناك روايات أيضاً، أمرتنا بعرض شروط المعاملات على القرآن الكريم فإن وافقته أخذ بها، وإلا فهو غير نافذة والمعاملات معها غير صحيحة، وإليك بعض منها.

الرواية الأولى

«عن عبدالله بن سنان عن الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: من اشترط شرطاً مخالفاً لكتاب الله عز وجل فلا يجوز له ولا يجوز على الذي اشترط عليه، والمسلمون عند شروطهم مما وافق كتاب الله»(١)

---

(١) الوسائل ج ١٢ ص ٣٥٣، باب ثبوت خيار الشرط بحسب ما يشترطانه، وكذا كل شرط

الرواية الثانية

«عن أبي عبدالله عليه السلام: المسلمون عند شروطهم إلا كل شرط خالف كتاب الله عز وجل، فلا يجوز»[١]

الرواية الثالثة

«... لأن كل شرط خالف كتاب الله فهو باطل»[٢]

الرواية الرابعة

«وإن كان شرطاً يخالف كتاب الله عز وجل فهو رد إلىٰ كتاب الله عز وجل»[٣]

فإذا اتضح لنا هذا الأمر اشد الوضوح، فنقول: وهل يمكن لنا عرض الروايات من أجل تصحيحها علىٰ قرآن نحن لا نفهم من ظاهره شيء، أم هل يتأتى لنا أن نرد شرطاً لا ندري وجه المخالفة فيه لكتاب الله الذي لم نفهم ظاهره؟

الظاهر أنه دون هذا وأمثاله خرط القتاد.

وبعد، فنقول بأن من أراد أن يتمكن من الاستفادة من الروايات ويميز صحيحها من سقيمها، فلا بد له من أن يتوفر علىٰ فنين اثنين،

إذا لم يخالف كتاب الله ـ الحديث الاول.

(١) المصدر السابق / الحديث الثاني.

(٢) المصدر السابق / ذيل الحديث الثالث بدون كلمة وهو.

(٣) المصدر السابق / ذيل الحديث الرابع.

وهما:

الفن الأول: أن يكون عارفاً للخطوط الكلية للكتاب العزيز وسيأتي بيانها.

الفن الثاني: أن يكون قادراً علىٰ أن يزن الروايات علىٰ الخطوط الكلية، للقرآن الكريم، ويعرف الكيفية التي ينبغي أن يعرض بها الروايات علىٰ القرآن الكريم، فلا بد له من أن يتوفر علىٰ عملية الاجتهاد القرآني التي تمكنه من وزن الحديث بشكل مباشر على القرآن.

فتحصل مما ذكرناه أن القرآن والسنة ثقلان لا يمكن لنا أن نفرد أحدهما عن الآخر. وغاية ما في المسألة أن القرآن هو الأصل فهو المبدأ، والروايات هي الفرع والقرآن هو المنتهى والمرجع لأنه ميزان الروايات.

فلو عمل بالقرآن دون العترة فهو عمل بغير القرآن لأنه أرشدنا إلىٰ اتباع العترة فيما تقول وما تفعل، وما تقرر، كما أن العمل بالعترة دون القرآن هو خروج عما يقتضيه حديث الثقلين الذي أمر بالتمسك بالأثنين.



الدرس الرابع

تقدم الكلام في المشكلة الأولى، والظاهر أننا قد وفينا الكلام فيها تقريباً.

وأما المشكلة الثانية: وهي أسباب النزول فهذه يمكن أن نصورها بتصويرين:

التصوير الأول

أن تُروىٰ لنا رواية عن أحد الصحابة كابن مسعود، أو ابن عباس أو غيرهما في أن هذه السورة أو الآية قد نزلت في كذا، أو في فلان أو فلانة، وهذا واضح بأنه تفسير للقرآن بغير القرآن بل بأسباب النـزول وشؤنه.

التصوير الثاني

أنه تُروىٰ لنا رواية عن أحد الأئمة عليهم السلام في أن الآيـة

المعينة قد نزلت في كذا، أو في فلان، وغير ذلك، وهذا أيضاً واضح عليه بأنه تفسير للقرآن بغيره.

وحيث أننا نريد أن نثبت دعوىٰ تفسير القرآن من دون حاجة إلى شيء غيره فلابد لنا من حل هذه أيضاً.

فأما التصوير الأول فجوابه بأن أقوال الصحابة في أسباب النزول لا يمكن لنا أن نعول عليها لعدم ثبوت عصمتهم لدينا، كما أنهم فيما بينهم مختلفون في موارد متعددة من اسباب النزول فبعضهم يدعي أن آية ما قد نزلت في مورد وآخر يدعي نزولها في مورد غيره. وأكتفى بإقامة مثالٍ واحدٍ فقط علىٰ هذه الدعوى.

ففي قوله تعالى:

﴿ود كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله علىٰ كل شيء قدير﴾(١)

فقد قال في مجمع البيان قيل نزلت الآية في حي بن اخطب وأخيه أبي ياسر بن اخطب في قصته، وقد ذكرها، وهذا الرأي عن ابن عباس.

وقيل نزلت في كعب بن الاشرف والرأي عن الزهري، وقيل نزلت في جماعة من اليهود عن الحسن البصري.(٢)

فلوجود هذين العيبين في مثل هذه الروايات ـ أعني عيب عدم العصمة في المروي عنهم، وعدم الاتفاق فيما يروىٰ عنهم، فلا يمكن

---

(١) البقرة / ١٠٩.

(٢) مجمع البيان ج ١ ص ١٨٤ تفسير البقرة آية ١٠٩.

التعويل علىٰ هذه الاسباب إلا من باب أنها لا تمثل أكثر من رأي علمي وتفسيري قد يكون مؤيداً لنا عندما نريد تفسير إحدىٰ آيات القرآن بطريقة تفسير القرآن بالقرآن.

وأما التصوير الثاني وهو ورود هذه الرواية في سبب النزول عن المعصوم عليه السلام فهذا لأنه يصل للمعصوم عليه السلام فلابد لنا من دراسة سنده فان كان السند ساقطاً فقد كفى الله المؤمنين القتال.

وإن كان سندها ناهضاً فلابد من التعامل مع متنها بأنه إنما يذكر احد المصاديق التي تقبل الآية أن تنطبق عليها، وربما يشير سبب النزول عنهم عليهم السلام إلىٰ المصداق الأكمل والأصلي في تفسير الآية، ومع هذا فإن سبب النزول لا يمنع من تفسير الآية بطريقة أخرى توافق ظاهرها وتدخل تحت طريقة التفسير المثلى، وهي طريقة تفسير القرآن بالقرآن.

وأقصى ما يمثله سبب النزول إذا كان عنهم عليهم السلام أنه تطبيق للآية علىٰ أحد مصاديقها ليس إلا، وقد اشتهر بينهم حتى صار من المسلمات أن المورد لا يخصص الوارد بل يتعدىٰ الوارد المورد إلىٰ غيره من الموارد المشتركة معه في العلة والمناط. وذلك لأن القرآن يجري مجرىٰ الشمس والقمر ومجرىٰ الليل والنهار، ولا تخلقه كثرة الرد كما ورد عن المعصومين عليهم الصلاة والسلام.

فاتضح إذن أن حديث الثقلين وأسباب النزول لا يمكن لها معارضة الطريقة المذكورة وهي تفسير القرآن بالقرآن.

اللهم إلا أن تقوم قرينة قطعية علىٰ أن آية معينة قد انحصرت في

موردها بحيث لا يمكن أن تتعداه إلىٰ غيره مثل قوله تعالى:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[1]

فإن القرائن قد قامت علىٰ أنها قد نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وأنها منحصرة فيه لا تتعداه إلىٰ غيره.

«وأما المشكلة الثالثة»

وهي آراء المفسرين وأقوال الصحابة ـ فهذه لا عبرة بها أكثر من كونها تمثل رأياً علمياً في تفسير الآية لا يمكن للمفسر أن يأخذه بدون أن يتأكد من صحته وسلامته، وعدم معارضته لمطالب القرآن الأخرى.

فإذا رأىٰ المفسر عدة آراء لمفسرين آخرين فلا ينبغي عليه الاكتفاء بها لأنها ليست حجة، وانما هي عبارة عن آراء قابلة للخطأ والرد.

وإلىٰ هنا نصل الىٰ دفع هذه المشاكل الثلاث، والتحقق من كون القرآن في متناول الجميع وأنه يفسر بعضه بعضاً، ولكنه يحتاج إلى التدبر، والتعقل، وصفاء النفس وحسن السريرة ولنا في أئمتنا عليهم السلام خير أسوة وقدوة في ذلك، فإنهم عليهم السلام كانوا دائماً يرجعون تلاميذهم إلىٰ القرآن ليفهموا منه ما هو ظاهر واضح، ويعلمونهم كيفية الاستدلال به من دون ضم الروايات إلىٰ الآية.

فقد نقل صاحب الوسائل:

---

(١) المائدة / ٥٥.

«عن محمد بن علي بن الحسين بإسناده، عن زرارة قال قلت لأبي جعفر عليه السلام إلا تخبرني من أين علمت، وقلت، أن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك فقال: يا زرارة قاله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ونزل به الكتاب من الله عز وجل لأن الله عز وجل يقول: ... وامسحوا برؤوسكم فعرفنا حين قال: برؤوسكم أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء»[١]

والخلاصة بأن القرآن جاء لكي يفهمه جميع الناس، ودعاهم جميعاً لكي يتدبروا فيه ويهتدوا بنوره، ولم يكن القرآن ليجمد كما جمد النصارى في أنهم قالوا بأن كتابهم لا يمكن لأحد أن يفهمه إلا رهبانهم واساقفتهم فضلوا ضلالاً بعيداً.

---

(١) الوسائل / ج ١ باب ٢٣ من أبواب الوضوء / الحديث الاول نقلنا موضع الحاجة منه.



الدرس الخامس

فيما سبق حاولنا انَّ نتخلص من المشاكل الثلاث التي تعترض طريقتنا في التفسير، ونحاول هنا أن نتعامل مع مشكلة أخرىٰ لنتخلص منها أيضاً.

وهذه المشكلة هي: أنه توجد طائفتان من الروايات حول فهم القرآن الكريم، وكيفية التعامل معه. وهما متعارضتان.

إحداهما: الطائفة الآمرة بالتأمل في الكتاب العزيز والتدبر في آياته، والاستشفاء به، وبدواءه، والاستغناء به، وغير ذلك من الروايات في هذا المعنى.

الثانية: الطائفة التي تقول بأنه، لا يوجد أحد يفهم القرآن ويعرفه حق معرفته إلا من خوطب به، وهم أهل بيت الطهارة والعصمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وواضح من خلال هذا البيان الاجمالي بأن هاتين الطائفتين

متعارضتان تعارضاً بدوياً، ونحن سنعرض روايات كلٍ من الطائفتين، ونحاول الجمع بينهما بأحدىٰ طرق الجمع المقبولة.

أما روايات الطائفة الأولى

الرواية الأولى:

فقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة قوله:

«والله سبحانه يقول: «ما فرطنا في الكتاب من شيء، وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ وإن القرآن ظاهره أنيق»(١)

ففي هذه الخطبة يشير الأمير عليه السلام إلىٰ معنى الطائفة الأولىٰ من الروايات.

الرواية الثانية:

«فأنظر أيها السائل: فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضيء بنور هدايته»(٢)

الرواية الثالثة:

«وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه انفع القصص، وإن العالم العامل بغير علمه

---

(١) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة ١٨ / ص ٦١.

(٢) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة ٩١ / ص ١٢٥ المعروفة بخطبة الاشباح.

كالجاهل ...»[١]

الرواية الرابعة:

«فإنما حكم الحكمان ليحيا ما أحيا القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، وإحياؤه الإجتماع عليه وإماتته الإفتراق عنه»[٢]

الرواية الخامسة:

« كتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعز لا تهزم أعوانه»[٣]

الرواية السادسة:

«وعليكم بكتاب الله، فإنه الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والري الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستعتب، ولا تخلقه كثرة الرد»[٤]

الرواية السابعة:

---

(١) نهج البلاغة / صحبي الصالح / ١١٠ / ص ١٦٤.
(٢) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة ١٢٧ / ص ١٨٥.
(٣) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة / ١٣٣ / ص ١٩١.
(٤) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة ١٥٦ / ص ٢١٩.

«يعطف الهوىٰ على الهدى، إذا عطفوا الهدىٰ على الهوى، ويعطف الرأي على القرآن، اذا عطفوا القرآن على الرأي»[١]

الرواية الثامنة:

«واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدىً ونقصان من عمى واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنيٍ، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاءاً من أكبر الداء. وهو الكفر والنفاق، والعيّ والضلال فاسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله واعلموا أنه شافع مشفع، وقائل مصدق وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة، الاكل حارثٍ يبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته واتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على انفسكم واتهموا عليه آراءكم واستغشوا فيه أهواءكم»[٢]

ومن خلال عرض هذه الروايات الثمان نتمكن أن تستلخص نتيجة مهمة وهي أن القرآن الكريم أنزله الله تبارك وتعالىٰ لكي يتسفيد منه الناس ويجعلونه ميزاناً لأهواءهم وأفكارهم وجميع قضاياهم المتعلقة بالهداية والضلال، واصلاح النفس والعقل. واذا كان كذلك فمن غير المعقول أنه لايكون مفهوماً إلا لدىٰ جماعة يسيرة من الناس فقط

(١) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة ١٣٨ / ص ١٩٥.

(٢) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة ١٧٦ / ص ٢٥٢.

دون غيرهم وهم العترة الطاهرة المطهرة عليهم السلام.

بل لابد أن يفهمه الجميع بدون استثناء حتى يعرفوا ما أحياه القرآن فيحيوه وما أماته فيمتوه، وما دلهم عليه من صفات الله وغير ذلك مما تقدمت به الخطب العلوية المباركة.

إلا أن هذه الطائفة من الروايات معارضة بطائفة أخرىٰ تجعل فهم القرآن مخصوصاً بأهل البيت عليهم الصلاة والسلام دون غيرهم.

ومن روايات هذه الطائفة ما يأتي.

روايات الطائفة الثانية

الرواية الأولى: عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

«ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق ولكن أخبركم عنه، ألا إن فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ...»(١)

الرواية الثانية: وهي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام:

«إنه قال: ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء»(٢)

الرواية الثالثة: وهي عن الثمالي عن الباقر عليه السلام:

«قال: ما أجد من هذه الأمة من جمع القرآن إلا الاوصياء»(٣)

الرواية الرابعة: عن الصادق عليه السلام قال:

---

(١) نهج البلاغة صبحي الصالح / خطبة ١٥٨ / ص ٢٢٣.

(٢) الأصول من الكافي ج ١ / ص ٢٢٨ / باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة عليهم السلام.

(٣) بحار الانوار ج ٩٢ / ص ٨٩ / الحديث الثالث / الباب ٨ / طبعة ايران.

«إنا أهل البيت لم يزل الله تعالى يبعث فينا من يعلم كتابه من أوله لآخره»(١)

الرواية الخامسة: وهي عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق عليه السلام أنه قال:

«والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره. كأنه في كفي، فيه خبر السماء، وخبر الأرض، وخبر ماكان، وخبر ما هو كائن، قال الله عز وجل: فيه تبيان كل شيء»(٢)

الرواية السادسة: عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

«يا علي أنت تعلم الناس تأويل القرآن بما لا يعلمونه، فقال: ما أبلغ رسالتك بعدك؟

قال: تخبر الناس بما أشكل عليهم من تأويل القرآن(٣)

الرواية السابعة: عن الصادق عليه السلام قال:

«كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وفصل ما بينكم، ونحن نعلمه»(٤)

وهذه بعض روايات الطائفة الثانية، وبمقارنتها مع روايات الطائفة الأولى فإننا نتمكن من الوصول إلى النتيجة التالية.

أن الروايات في الطائفة الثانية تجعل الائمة فقط والأوصياء هم الذين يفهمون القرآن بجميع حيثياته، وبكل أبعاده، وشتى جهاته من دون استثناء، كالظاهر والباطن، والمحكم والمتشابه والتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ، وكل ما يتصور من جهات القرآن الكريم.

ولسان هذه الروايات واضح وصريح في ذلك فهي مطلقة من هذه

---

(١) البرهان / البحراني ج ١ / الباب الخامس / حديث رقم ١١ / ص ١٦.

(٢) الأصول من الكافي ج ١ / ص ٢٢٩ / كتاب الحجة / باب الأئمة هم الذين جمعوا القرآن.

(٣) بحار الانوار ج ٢٣ / ص ١٩٥ / ح ١٣ / الباب / ١٠.

(٤) الصافي / الكاشاني / ج ١ ص

الجهة بمعنى أن من أراد فهم القرآن كله وبجميع أبعاده فإنه لا يتسنى له ذلك إلا إذا كان من الأوصياء والمعصومين.

وأما روايات الطائفة الأولىٰ وهي الروايات الداعية إلىٰ الاستفادة من الكتاب الجليل والنظر في أياته والتدبر فيها والتعمق في مطالبها فإنها ناظرة إلىٰ الاستفادة من ظواهر الكتاب ومحكماته، وهذا متيسر لكل أحد يريد ذلك بعد توفير المقدمات العلمية من قبيل فهم قواعد العربية ومعانيها وما أشبه.

وإلا لما كان هناك أي معنى للأوامر الكثيرة الداعية للتدبر والتفكر في آيات الكتاب الجليل ولما كان هناك أي معنى لعرض الروايات علىٰ الكتاب والأهواء والافكار عليه.

فيمكن أن تكون الروايات المطلقة في الطائفة الثانية مقيدة بروايات الطائفة الأولىٰ التي نظرها مقصور علىٰ الظواهر وتكون كالآتي ليس لأحد أن يفهم القرآن كله من جميع جهاته إلا الأوصياء وأما الظاهر فهم وجميع الناس يفهمونه وإن كانت الآيات تحتمل أكثر من ظاهر قد لا يحيط الناس بجميع وجوهه والمعصومون يحيطون بها.

خلاصة البحث في المقدمة الأولى

بعد أن أنتهيت من المقدمة الأولىٰ حاولت أن أضع نتيجتها على شكل نقاط مختصرة حتى يتذكرها القارىء العزيز، وهي:

١ ـ القرآن الكريم كتاب عالمي لكل البشر في جميع الأزمنة والأمكنة.

٢ ـ كل شخص في هذه الدنيا محتاج إلىٰ القرآن ولا يمكن له الاستغناء عنه.

٣ ـ جميع مطالب هذا الكتاب العظيم واضحة وبينة ونوارنية وليس فيه معميات ولا ألغاز ولا مطالب معقدة.

٤ ـ اللسان الذي استخدمه القرآن في بيان مطالبه هو لسان الفطرة السليمة.

٥ ـ أن القرآن الكريم كتاب يفسر بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً.

٦ ـ الأسلوب الذي استخدمه القرآن الكريم في الدعوة إلىٰ الله هو أسلوب الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال الأحسن.

٧ ـ أول معلم للقرآن الكريم هو خالق القرآن وهو الله تبارك وتعالى، وقد أوجد في الانسان الأسس والقابليات لكي يفهم هذا القرآن.

٨ ـ أن القرآن مأدبة الله إلىٰ عباده، فهو لا يحتاج إلىٰ شيء من خارجه ليفسره بل هو يفسر نفسه.

٩ - إن حديث الثقلين وأسباب النزول وآراء المفسرين لا تتعارض مع طريقة تفسير القرآن بالقرآن.

١٠ - القرآن الكريم هو الأصل في اثبات حجية الروايات، وأنه يمتاز ببعدين قطعيين وبعد ظني واحد والروايات بأبعادها الثلاثة ظنية.

١١ - تفسير القرآن هو كشف الستار عن وجوه الالفاظ وبيان مداليلها، وتبيين القرآن هو ذكر الجزئيات والتفصيلات والحدود والكيفيات بالنسبة للقضايا الكلية فيه.

١٢ - إن من أراد عرض الروايات علىٰ القرآن فلا بد له من معرفة الخطوط الكلية في القرآن الكريم.

١٣ - الخطوط الكلية في القرآن الكريم هي مسائل التوحيد، والصفات، والانسان وعلاقته بالله، وعلاقته بالدنيا والآخرة والأصول الخمسة للدين.

١٤ - لا يفهم جميع القرآن بكل أبعاده وحيثياته إلا من خوطب به، وهم أهل البيت عليهم السلام.

١٥ - أن القرآن الكريم لا أختلاف ولا تخلف فيه مطلقاً، وأنه دعى جميع الناس الىٰ التدبر فيه وفي آياته.

١٦ - أن المعارف الاسلامية تنقسم إلى:

أ - أصول الدين وهي الاعتقادات.

ب - فروع الدين وهي الأحكام العملية.

ج - معارف علمية يجب الاعتقاد بها في الجملة.

١٧ - يكفي الظن في المسائل العملية، ولا يكفي في المسائل

العلمية بل لابد من القطع والجزم واليقين فيها.

١٨ ـ ظواهر القرآن الكريم متيسرة الفهم والروايات داعية إلى الاستفادة من كتاب الله بهذا المقدار والروايات المانعة من الأستفادة منه قد لاحظت القرآن بجميع الأبعاد.



المقدمة الثانية

وهي في بيان أن القرآن مصون عن التحريف.
وفيها أربعة دروس

الدرس الأول

مشكلة القول بتحريف القرآن من المشاكل التي تمنع من الإستفادة من ظواهر القرآن الكريم والاستدلال بها على الدعاوي العلمية والعملية، كما أنها من المشاكل التي تعترض طريقتنا في تفسير القرآن بالقرآن أيضاً.

وذلك لأن مدعي التحريف، كما سيأتي يدعي وقوع التحريف في القرآن الكريم في الجملة، وهذا كما هو واضح يمنع من الاستفادة من القرآن مطلقاً إذ أن العلم الإجمالي يسري في جميع أطراف الشبهة المحصورة فيمنع من الاستفادة من جميع أطرافها، فيسقط القرآن والعياذ بالله عن دوره في الهداية ويبقى لمجرد التلاوة المجردة عن

الاستفادة.

وهذه الدعوىٰ بهذا المقدار عظيمة الخطر إذ أنها تؤدي إلىٰ نسخ النبوة وسقوطها وبالتالي سقوط الاسلام، بل انتفاء الشرائع السابقة، لأن القرآن الكريم معجزة النبوة ومدرك الاسلام والشرائع السابقة، فإذا سقط القرآن عن الاستدلال سقط ما نريد أن نستدل بالقرآن عليه.

وفي مقام رد هذه الدعوىٰ وتهديمها من أساسها عقدت هذه المقدمة الثانية، وهي كما سيتضح تحتوي علىٰ المباحث التالية:

١ ـ المعاني المختلفة للتحريف، وتحديد المعنى المتنازع فيه.

٢ ـ دعوىٰ صيانة القرآن الكريم وسلامته من التحريف بالمعنى المتنازع فيه، مع اقامة الأدلة علىٰ ذلك من العقل، والقرآن، والسنة والسير التاريخي.

٣ ـ بيان الشبهات التي تمسك بها مدعو التحريف بالمعنى المتنازع فيه ورد هذه الشبهات. مع تخلل بحوث لها صلة بالموضوع من قريب أو بعيد كالبحث عن الاعجاز وأنواعه، وجمع القرآن الكريم، وغيرهما من البحوث الجانبية المرتبطة بالموضوع.

وبهذا الترتيب للبحث وسوف يتضح بطلان هذه الشبهة من أساسها ويتبين أنها شبهة في مقابل بديهة، وأن القرآن الكريم من أول باء بسم الله في سورة الحمد إلىٰ آخر سين الناس في سورة الناس مصون عن العبث والتزوير وأنه الكتاب الذي انزله الله تعالىٰ علىٰ قلب رسوله المصطفى صلىٰ الله عليه وآله وسلّم، من دون زيادة ولا نقيصة لأنذركم به ومن بلغ.

المعاني المختلفة للتحريف:

هناك ستة معانٍ للتحريف نحيل القارىء العزيز لمراجعتها في كتاب البيان طلباً للاختصار، ومراعاةً لعدم التكرار، إذ أن أكثر الكتب التي بحثت هذا الموضوع تعرضت له فلا نعيد[1]

وحيث أن هذه المعاني الستة لم يقع النزاع إلا في واحد منها فمن الأفضل قصر البحث عليه بغية تفنيده وإبطاله.

وتلك المعاني الاخر وإن وقع شيء من النزاع فيها إلا أنها لا تؤثر على الاستدلال بالقرآن الكريم.

المعنى المتنازع فيه:

وهو ما ذهب إليه جمع من محدثي الشيعة والحشوية، وجماعة من محدثي أهل السنة، وحاصله وقوع التحريف بمعنى النقص والتغيير في اللفظ، وأن هذا القرآن الموجود بين أيدينا ليس هو القرآن الذي انزله الله على قلب رسوله، بل عرض عليه النقص، وأما الزيادة فقد احتجوا على نفيها بالاجماع، وقد استدلوا على دعواهم في نسبة النقص إلى القرآن بوجوه سيأتي بيانها وضعفها.

وأما المحققون من الامامية وكذا من أهل السنة والجماعة، فقد أثبتوا أن القرآن الكريم الموجود بين أيدينا مصون عن هذا النوع من

---

(١) انظر البيان / السيد الخوئي / ص ٢١٦ وما بعدها.

التحريف، وكلماتهم واضحة في ذلك، فمن أراد فليراجع البيان، وليراجع أيضاً كتاب التحقيق في نفي التحريف للسيد علي الميلاني [١] ولينظر في مقدمات التفاسير كمجمع البيان، والتبيان، والصافي وغيرها.

ودعوىٰ التحريف وإن كانت مخالفة لبديهيات العقل إلا أن العلماء قد أقاموا الأدلة علىٰ دحضها وتفنيدها حتى لا تبقى علىٰ الله حجة للناس.

الأدلة علىٰ صيانة القرآن عن التحريف:

الدعوىٰ التي نريد اثباتها كما أسلفنا هي أن هذا القرآن من أوله إلىٰ أخره بجميع مطالبه وموضوعاته، وتشريعاته، وأحكامه من أول نزوله إلىٰ يوم يبعث الله الأرض ومن عليها مصون عن التحريف بمعنى النقيصة والاسقاط والتبديل والتغيير، ودليلنا علىٰ ذلك العقل والنقل الذي منه القرآن والسنة والحوادث التاريخية.

الدليل الأول: دليل العقل

وهذا هو أقوىٰ الأدلة، وأهمها من حيث إحكامه، وعدم ورود الاشكالات التي يمكن أن ترد علىٰ غيره من الأدلة عليه.

ويعتمد هذا الدليل علىٰ مقدمات ثلاث:

---

(١) التحقيق في نفي التحريف / السيد علي الميلاني / منشورات دار القرآن الكريم / قم ص .

المقدمة الأولى:

أن العقل حاكم بضرورة النبوة، ولزوم بعث الرسل وإنزال الكتب وإلا خرج العادل عن كونه عادلاً.

المقدمة الثانية:

أن النبوة لا يمكن للناس أن يصدقوها، بل لا يمكن لصاحبها أن يدعيها إلا مع كونه مزوداً بالمعجزة.

المقدمة الثالثة:

أن نبوة نبينا محمد «ص» هي النبوة الخاتمة، فلابد أن تكون خالدة ولازم ذلك خلود معجزتها.

فإذا أتضح ذلك نقول:

إن حكمة الله تبارك وتعالىٰ وعدله اقتضيا أن يرسل الرسل وينزل الكتب واحداً بعد الآخر بحسب ما يقتضيه حاجات الناس ومصلحتهم، ثم اقتضت الحكمة الربانية ختم هذه الرسالات بنبوة محمد «ص» وانزال القرآن الكريم معه، وجعله مهيمناً علىٰ الكتب السماوية التي تقدمته، بحيث ضمنه كل ما في تلك الكتب من المعارف والأحكام العالية. وجعله معجزة له كي يصدق بها من رآه ومن لم يره، ويتحدى بها الجن والانس، والعرب والعجم. ويعجزهم عن أن يأتوا بمثله، ويهديهم به إلىٰ الصراط المستقيم ويبعدهم عن كيد الشيطان، ويرسم لهم الطريق إلىٰ الله، ويعلمهم من خلاله طرق العيش السليم، متحملاً في ذلك كل

المشاق والمصاعب والمتاعب من الأذىٰ النفسي والجسمي، والحرمان والشقاء والقهر والعناء.

فهل من المعقول علىٰ الحكيم العادل ـ بعد كل ما بذله أحب الناس إليه وأقرب الخلق منه من الأنبياء والصالحين والشهداء والصديقين في سبيل رسالته وإعلاء كلمته ـ أن يترك معجزة النبوة لكي يتلاعب بها المتلاعبون ويعبث بها العابثون، وينقصوا منها ما يشاءون، ويبدلوا منها ما تقتضيه مصالحهم، وترغب إليه نفوسهم، متغافلاً عن تحقيق غرضه في إرادة الهداية، ومتناسياً جهود انبياءه في ابعاد الناس عن الغواية؟

أم هل من المعقول أن ينظر الحكيم إلىٰ أن الناس قد أبطلوا النبوة وضيعوا معجزتها، وهي الرسالة الخاتمة وهو يتفرج عليهم تاركاً لهم القياد؟ دونما تدخل منه لحفظها وإخلادها؟

هذا أمر لا يصدقه عاقل فضلاً عن عالم.

فإن قلت: إن هذا الأمر قد حدث في الرسالات السابقة كالانجيل والتوراة فإن أصحابها قد حرفّوها، وزادوا فيها وانقصوا منها، من دون ان يتدخل القضاء الالهي في حفظها وصيانتها.

فيمكن أن يحدث مثله أيضاً في القرآن الكريم مع ملاحظة نفي الزيادة بالاجماع.

قلت: هذا الاشتباه يمكن أن يجاب عنه بأمرين.

الأمر الأول: إن تلك الكتب والرسالات لم يتعهد الله بحفظها كما تعهد بحفظ القرآن الكريم في قوله:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(١)

بل نجيب بالنقص أيضاً بأن نقول إن الله تعالىٰ قد حفظ تلك الكتب من خلال ذكرها في القرآن الكريم، وبيان الخطوط الكلية التي كانت فيها في القرآن الكريم.

الأمر الثاني: لو سلمنا بوقوع التحريف فإن تلك الرسالات لم تكن خاتمة، وأما رسالة القرآن فهي رسالة خاتمة ـ كما مر في المقدمة الثالثة ـ فيلزم حفظها لأنها هي التي تخلد ما سبقها من الرسالات أيضاً.

أما الرسالات المتقدمة فلو لم تحفظ فلا محذور في ذلك لأن ما سيأتي بعدها هو المعتمد.

فإن قلت ثانياً: بأن التحريف واقع في القرآن، ومع ذلك فإن هذا التحريف لا يضر بالمعجز ـ كما ادعيتم ـ بل يعد هذا المقدار الموجود منه والذي سقط منه بعض الآيات معجزاً يمكن التحدي به، واثبات النبوة بواسطته، فلا يثبت الدليل العقلي الذي قوامه سقوط المعجز عن اعجازه ونسخ النبوة والشريعة.

قلت: بل يسقط القرآن ـ والعياذ بالله ـ عن اعجازه مع دعوى وقوع التحريف فيه.

بيان ذلك: أن القرآن الكريم قد قال:

﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

---

(١) الحجر / ٩.

اختلافاً كثيراً﴾[1]

فقد أمرت هذه الآية بالتدبر في القرآن، ودعت إلى البحث عن مواطن للتناقض والاختلاف آن وجدت. فإن لم توجد فإنه من عند الله وإن وجدت فهو من عند غير الله كما يتضح من خلال القياس الاستثنائي المستفاد من الآية الكريمة.

ولا سبيل إلى اكتشاف عدم التناقض والاختلاف إلا من خلال مقارنة جميع الآيات القرآنية بعضها ببعض، والوصول إلى الجزم واليقين بعدم وجوده في القرآن أمّا الاحتمال فغير كاف.

فإذا كان مدعي التحريف يدعي بوقوع النقص في القرآن، ويدعي ببقاء إعجازه مع ذلك!

فإننا نسأله قائلين له: إننا قارنا جميع الآيات القرآنية الموجودة في القرآن فلم نجد اختلافاً، ولا تناقضاً.

ولكن هذا المقدار ـ بحسب دعواك ـ غير كافٍ لإثبات عدم الاختلاف اذ لابد لنا أيضاً من مقارنة هذه الآيات الموجودة بين أيدينا مع الآيات التي تدعي سقوطها وضياعها لنكتشف أيضاً عدم الاختلاف بينهما.

ومع عدم تمكننا من ذلك فنحتمل الاختلاف بينها وبين ما هو موجود وإذا وجد الاحتمال بطل الاستدلال فوجود احتمال الاختلاف يلازم احتمال كون القرآن من عند غير الله، واذا كان من عند غير الله بطل إعجازه وحيث أنه دليل النبوة فتبطل النبوة ببطلان دليلها.

---

(١) النساء / ٨٢.

وعليه فلابد من المصير إلى القول بعدم وقوع التحريف في القرآن الكريم بهذا الاستدلال.

أضف إلى ذلك أن الأمر أمر إلهي من الحكيم تبارك وتعالى فإن كان الأمر بالتدبر في هذا الموجود باعتبار أنه القرآن النازل على قلب رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم ولا يوجد قرآن سواه فهو المطلوب. وبه ثبت الصيانة عن التحريف.

وإن كان الأمر بالتدبر متوجهاً إلى هذا القرآن الموجود، والقرآن المفقود الذي اسقط من هذا معاً، فإنه يلزم منه التكليف بغير المقدور لأن المفقود ليس في مقدورنا ايجاده والبحث عنه، وهذا خلاف الفرض إذ أن الفرض أن الأمر حكيم فلا يأمر بما لا يطاق.

فاتضح بهذا الدليل العقلي المتين أن القرآن الكريم مصون عن التحريف والنقصان.



الدرس الثاني

ذكرنا فيما سبق الدليل العقلي، ونحاول في هذا الدرس أن نذكر الدليل النقلي ولنبدأ بالقرآن الكريم.

الدليل الثاني: القرآن الكريم.

وهذا الدليل إنما جعلناه ثانياً لورود بعض الأشكالات عليه، كما سيتضح خلال البحث ـ ولاحتياجنا إلى الدليل الأول في ردها.

وبحسب ما يستفاد من الآيات الكريمة ـ بعد الفراغ من حجية ظواهر القرآن كما هو التحقيق ـ الجزم بصيانة القرآن وحفظه عن التحريف بالمعنى المتنازع فيه.

ويمكن تقسيم الآيات الدالة على صيانة القرآن الكريم عن التحريف إلى ثلاث مجموعات.

المجموعة الأولى: الأيات الدالة على حفظ الوحي في مراحله الثلاث، وهي مرحلة التلقي والحفظ، والتبليغ.

المجموعة الثانية: الآيات الواصفة للقرآن بأنه نور، وعزيز، وذكر، وحميد.

المجموعة الثالثة: آية سورة الحجر، وهي انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

المجموعة الأولى:

وهي آيات حفظ الوحي في مراحله الثلاث:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة تلقي الرسالة من خلال الوحي، وفيها لا بد من عصمة المتلقي من حيث السمع والفهم فينبغي له أن يسمع كل ما يأتي به الروح الأمين، ويفهمه على وجهه كما يريده الله تعالى فلا يفوته منه شيء مطلقاً لا سمعاً ولا فهماً.

وفي بيان هذه المرحلة يقول تعالى لنبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[1]

فبين تعالى أن رسوله «ص» معصوم بالعلم اللدني الذي يمثل أرقى مراتب القرب الالهي التي لا يمكن لوساوس الشيطان وغيره أن تؤثر فيه مطلقاً، فهذه أولى مراحل حفظ الوحي فلا يحتمل وقوع التحريف والتزوير في هذه المرحلة.

ويقوي هذه الآية قوله تعالى:

---

(١) النمل / ٦.

﴿نزل به الروح الأمين علىٰ قلبك لتكون من المنذرين﴾[١]

وبحسب ما يقول العارفون إن الآية الأولىٰ في مقام القوس الصعودي والثانية في القوس النزولي.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الحفظ بحيث يعصم النبي «ص» في حافظته لما يوحي اليه بعد سماعه وفهمه بتمامه، فلا ينسى شيئاً منه طوال فترة تبليغه ولا يسهو عن شيء، فينبغي له أن يتمتع بنسبة ١٠٠ ٪ من الحفظ لا تنقص أصلاً وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله﴾[٢]

وتعليق عدم النسيان علىٰ المشيئة معناه أن الله تعالىٰ هو الذي ثبتك وهو قادر علىٰ أن ينسيك لكنه لاينسيك، وليس المعنى أنك لا تنسى إلا بعض القضايا التي يشاء الله أن تنساها، ومثل هذه الآية الكريمة قوله تعالى:

﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾[٣]

أي أن الخلود بمشيئة الله تعالىٰ وأنه قادر علىٰ أن يخرجهم منها لكنه لا يفعل.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة العصمة في التبليغ، والأداء، فلابد

---

(١) الشعراء / ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٢) الأعلىٰ / ٦ ـ ٧.
(٣) هود / ١٠٧.

للنبي «ص» أن يكون معصوماً حينما يبلغ الرسالة، ويؤدي الأمانة، وينبغي له أن يعصم في هذه المرحلة فلا يزيد ولا ينقص فيما أوحى إليه من ربه، وحفظه الله تعالىٰ في المرحلتين المتقدمتين، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى:

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه﴾(١)

وقال عز من قائل:

﴿وما ينطق عن الهوىٰ إن هو الا وحي يوحى﴾(٢)

فبينت الآية الأولىٰ مسألة الجمع للقرآن وأنها علىٰ عهدة الله تعالى، والآية الثانية دلت علىٰ أن النبي «ص» معصوم في التبليغ فكل ما ينطق به من الوحي والوحي، محفوظ في مرحلتي التلقي والحفظ فهو محفوظ في مرحلة التبليغ أيضاً.

هذه هي المراحل الثلاث مع ما يمكن أن يستدل به عليها من القرآن الكريم كل علىٰ حدة، أما ما يدل عليها مجتمعة فهو قوله تعالى:

﴿عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم، وأحصى كل شيء عدداً﴾(٣)

فهذه الآيات الكريمة بينت ما يلي:

١ ـ أن الرسول «ص» مطلع علىٰ الغيب لأنه مرتضى من قبل الله

---

(١) القيامة / ١٦ ـ ١٧.

(٢) النجم / ٣ ـ ٤.

(٣) الجن / ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨.

تعالىٰ وهي مرحلة التلقي والعصمة فيها.

٢ ـ أن الله يسلك الرصد والحراس المراقبون من بين يدي الرسول وهي مرحلة العصمة في الحفظ.

٣ ـ أن الرصد كما هو أمام الرسالة أي في مرحلة الحفظ كذلك هو في مرحلة الاداء والتبليغ وهو قوله من خلفه.

٤ ـ أن قوله تعالىٰ ﴿**ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم**﴾، قد فسربالعلم الفعلي وهو الذي يقابل العلم الذاتي، ومعناه تحقق المعلوم في الخارج، كقوله تعالىٰ ﴿**ليميز الله الخبيث من الطيب**﴾، وكقوله «وليعلمن الصابرين» وفي هذا أول دليل علىٰ صيانة الرسالة عن التحريف لأن مقتضى العلم الفعلي كما قلنا، تحقق المعلوم في الخارج، وهو ابلاغ الرسالة، ولا يكون الابلاغ إبلاغا إلا أذا كان بمقتضى الامانة والمحافظة علىٰ الرسالة وايصالها إلىٰ الناس مصونة عن كل نقص وتبديل.

فهذه الآية الكريمة دلت علىٰ أن القرآن مصون عن التحريف في مراحله الثلاث.

أن قلت: إن هذه المراحل الثلاث مسلمة، وأن النبي «ص» معصوم فيها، والرسالة قد بلغت من دون تحريف ولا نقصان ولا زيادة إلا أن التحريف قد حصل بعد ذلك، فبعد أن أبلغ الرسول «ص» رسالات ربه تدخلت الأيدي وحرفت فيها وانقصتها ما شاءت فوصلت الرسالة الينا ناقصة محرفة.

قلت: إن معنى الإبلاغ هو الايصال إلىٰ كل مكلف وانذاره بالقرآن

وإلا فلا معنى لقوله تعالى:

﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾[١]

إذ معنى هذه الآية أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يبلغ القرآن وينذر به كل من بلغه ولا بد من سلامته مع ذلك، فإذا بلغ بعض الناس وهو محرف فلا معنى للإنذار، إذ لا يستوي من أنذر بقرآن مصون عن التحريف، وهم المسلمون الأوائل مع من أنذر بقرآن محرف وهم نحن المتأخرون وإذا كان الأمر كذلك فإنه يصطدم مع ذيل آية سورة الجن التي أكدت العلم الفعلي في الابلاغ، ومع التحريف لا يتحقق الابلاغ، ومعناه تخلف معلوم الله وهو محال. فتأمل.

ثم على فرض عدم تمامية هذه الاجابة، يمكن أن نرجع إلى الدليل العقلي المتقدم ونستعين به في المقام فنقول:

إذا كان تعالى قد عصم الرسالة في المراحل الثلاث وشدَّد على حفظها بشكل كبير حيث قال عن رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

﴿ولو تقول علينا بعض الاقاويل، لاخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين﴾[٢]

فهل من المعقول أن يتركها تعالى بعد ذلك سائبة متروكة للعبث والتحريف.

وهي الرسالة العالمية الخاتمة! دون اثبات ذلك نزف البحار بالافواه.

---

(١) الانعام / ١٩.

(٢) الحاقة / ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦.

فإن قلت ثانيا: إن الآية التي ذكرتها في سورة الجن وجمعت فيها المراحل الثلاث العاصمة للرسالة ليست مخصوصة برسالة القرآن بل هي عامة تشمل حتى الانجيل والتوراة كما هو ظاهر من سياقها، مع أننا نعلم أن الانجيل والتوراة قد نالتهما يد التحريف والتبديل، فيمكن أن يحدث هذا في القرآن أيضاً.

قلت: أما أن الآية عامة تشمل الانجيل والتوراة فمسلم أما أن الانجيل والتوراة قد نالته يد التحريف والتزوير فلا لأن الانجيل والتوراة ـ كما قلنا فيما تقدم من الدليل العقلي ـ قد جاء القرآن بكل ما فيهما من الخطوط الالهية العامة وهو قوله تعالىٰ في وصف القرآن الكريم:

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يدية من الكتاب ومهيمناً عليه﴾[1]

فذكر ما يتعلق بمريم وعيسى وموسى «ع» وما يرتبط بالمسيحية واليهودية في كثير من الأمور، لذلك عندما حاول اليهود أن يكذبوا أو يدعوا أن التوراة قد حرم عليهم بعض الأمور قال لهم تعالى:

﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾[2]

وقد جاء ما يؤكد أن التوراة إلىٰ مجيء الاسلام لم يطرأ عليها التحريف إذ يقول تعالى:

---

(١) المائدة / ٤٨.

(٢) آل عمران / ٩٣.

﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين، إنا إنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء ...﴾[١]

وقد أمر الله تعالىٰ أهل الانجيل بالحكم بما أنزل الله فيه مما يدل علىٰ أنه ليس محرفاً فقال تعالى:

﴿وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الفاسقون﴾[٢]

وهذه المجموعة المباركة من الآيات الكريمة تدل علىٰ حفظ القرآن الكريم من قبل الله تعالى، وعدم إمكان تحريفه لأحد مطلقاً، فتدل علىٰ صيانته عن التحريف والتبديل ولا بأس أن نذكر هنا هذا البحث: وهو في فشل جميع الطرق العقلائية في مواجهة القرآن، خصوصاً وأن الكثير من الناس الذين يعادون القرآن ـ ومنذ صدر الإسلام ـ قد حاولوا كثيراً في أن يعارضوا القرآن الكريم، ولكنهم مع ذلك لم يفلحوا ولا في محاولة واحدة اصلاً.

ولازم هذا الامر كون القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله تعالى، وباقياً علىٰ إعجازه وتحديه، وليس لأحد أن يزيد فيه أو ينقص من عند نفسه وبإملاء هواه.

---

(١) المائدة / ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) المائدة / ٤٧.

الطرق المنطقية العقلية في مواجهة أي فكرة أو نظرية:

توجد في هذا المجال طرق ثلاثة لا رابع لها وهي:

١ ـ النقض.

٢ ـ المنع.

٣ ـ المعارضة.

ومتى أمكن نجاح إحداها في مواجهة فكرة ما فإن تلك الفكرة أو النظرية تسقط عن الاعتبار.

أما النقض: فإنه يتم من خلال خرق كلية من كليات الخصم المدعاة، بأن تجري هذه الكلية في بعض الموارد فلا تنتج النتيجة المطلوبة. وبهذا تسقط الكلية عن صلاحيتها للاستدلال.

مثلاً: القرآن الكريم يقول:

﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (١)

أي أن القرآن الكريم يقول: كل مطالب القرآن متناسبة ومنسجمة مع بعضها البعض، وهذا دليل كونه من الله تعالى.

فإن أخذ الخصم هذه الكلية واجراها في بعض الموارد ولو مورداً واحداً بأن لاحظ مطلباً واحداً فقط لا ينسجم مع الآخر. فهذا المقدار كافٍ لاسقاط دعوىٰ الخصم، وهذا الطريق لم يتمكن أحد من مواجهة القرآن الكريم به.

---

(١) النساء / ٨٢.

وأما المنع: وهو عبارة عن زلزلة إحدىٰ مقدمات برهان الخصم، ومنعها بأن يقال مثلاً الصغرىٰ في الدليل ممنوعة، أو الكبرى، أو لا يوجد تلازم بين المقدم والتالي وغير ذلك.

مثلاً: القرآن الكريم يقول:

﴿فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ...﴾[1]

فيمكن ترتيب قياس منطقي كالتالي لا يقدر أحد ولن يقدر علىٰ اتيان سورة ومن كان كذلك فليتق النار.

فلو منع مانع جريان الصغرى، وقال مثلاً: إن قولكم: لن يقدر ممنوع وأقام الدليل علىٰ هذا المنع فإن البرهان يسقط بتمامه لانهدام صغراه، وهذا الطريق أيضاً كسابقه في عدم جريانه في القرآن الكريم.

وأما المعارضة: فهذا طريق ثالث لا شغل له بنقض الكلية أو بخلخلة إحدىٰ مقدمات البرهان، وإنما يقوم هذا الطريق علىٰ أساس الاتيان بدليل مستقل معارض تماماً لدليل الخصم، واذا ابتلىٰ دليل ما بدليل آخر في عرضه فهذا مسقط له عن الدليلية، وهذا الطريق أيضاً كسابقه في عدم تحققه لاحد حاول مقابلة القرآن الكريم.

فإذا سقطت هذه الطرق الثلاث فلابد من المصير إلىٰ طريق آخر وهو محاولة الزيادة أو النقصان في الكتاب العظيم، وبعد ذلك يمكن أن تتحقق إحداها وهذا لا يتم إلا من خلال إحداث التحريف فيما وصل إلىٰ

---

(١) البقرة / ٢٤.

النبي «ص» قبل إبلاغه للناس، وهذا ما قد نفي بالطائفة الأولى المتقدمة في بيان المراحل الثلاث وكذلك في قوله تعالى:

﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذاً لاتخذوك خليلاً﴾[1]

وبهذا يتضح لنا أن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله تعالى وبإعجازه، وهذا الاعجاز الذي حفظ به القرآن اعجاز في الحدوث واعجاز في البقاء ولا يوجد شيء غير القرآن قد حظي بهذا النوع من الاعجاز، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على عظمة القرآن وأهمية بقاءه سالماً مصوناً عن كل نقص وعيب.

وإنما قلت إعجاز في الحدوث واعجاز في البقاء لما عليه الامور المحتاجة إلى المعجزة من التقسيم بشكل ثلاثي.

الاعجاز وأقسامه الثلاثة:

كل الاشياء غير العادية، والتي تحتاج إلى إعجاز لا يخلو احتياجها إلى الإعجاز عن إحدى طرق ثلاث:

الأولى: الاعجاز من حيث الحدوث فقط لا غير، وأما بقاءاً واستمراراً فلا اعجاز وانما خضوع للقوانين الطبيعية.

وأمثلة هذه الحالة كثيرة.

منها: ناقة صالح فهي حدوثاً قد خرجت من قلب الجبل وهذا

---

(١) الاسراء / ٧٣.

خلاف القوانين العادية، ولكنها بقاءاً واستمراراً كبقية النياق العادية التى ولدت من أم وأب يمكن أن تقتل أو تموت أو يحل بها ما يحل بغيرها من النياق ولذلك فقد عقرها قوم صالح.

ومنها: نبي الله عيسى، فهو ولادة وحدوثاً معجز وأما بقاءاً فليس كذلك.

ومنها: الطير الذىٰ كان يخلقه نبي الله عيسى بإذن الله، وهو قوله تعالى:

﴿اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيها فيكون طيراً بإذن الله﴾ (١)

وبعد ذلك يعيش هذا الطائر كبقية الطيور الأخرى.

الثانية: الاعجاز من حيث البقاء فقط لا غير، وأما الحدوث فلا. وهذه الحالة يمكن تقسيمها إلىٰ قسمين:

الأول: الحاجة إلىٰ الاعجاز بقاءاً في مقطع معين من الزمن.

الثاني: الحاجة إلىٰ الاعجاز بقاءاً دائماً وفي كل آيات الزمان.

ومثال القسم الأول هو نبي الله موسى «ع» فهو حدوثاً ولد من أبوين ولكنه بقاءاً وفي مقطع معين من الزمن، وهو زمن كونه رضيعاً قد حفظه الله تعالىٰ بالإعجاز إذ أمر أمه بإلقاءه في اليم وأمر البحر بإلقاءه إلى الساحل وبعده حفظه وهو في قصر فرعون، وبعد أن بلغ أشده صار أمره لايحتاج إلىٰ الاعجاز فبقي كسائر الناس ... وكذلك الحجة «عج» وهو

---

(١) آل عمران / ٤٩.

محفوظ إلىٰ ان يأذن الله بظهوره ثم يجتبيه إلىٰ بعد أن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

وأما مثال القسم الثاني فهو الكعبة المشرفة التي هي حدوثاً قد بناها إبراهيم واسماعيل «ع» حيث يقول تعالى:

﴿واذ يرفع مع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل﴾ (١)

ولكنها بقاءاً واستمراراً إلىٰ يوم القيامة محفوظة بحفظ الله إذ يقول عز من قائل:

﴿ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ (٢)

فكما حدث لأصحاب الفيل يحدث لكل من تسول له نفسه أن يمحوا الكعبة ويخرجها عن كونها قبلة للمسلمين.

الثالثة: وهي الإعجاز من حيث البقاء والاستمرار، والحدوث أيضاً وهذا كما يظهر منحصر في كتاب الله لا يتعداه إلىٰ غيره.

فإذا استبان ان القرآن معجز بهذا النحو من الاعجاز، فلا مجال لأن يتصور وقوع التحريف فيه، بشكل يسلبه حجيته، واعجازه، وهدايته الناس. أعاذنا الله من شرور أنفسنا.

---

(١) البقرة / ١٢٧.

(٢) الحج / ٢٥.



الدرس الثالث

تقدمت المجموعة الأولىٰ من الآيات الدالة علىٰ كون الكتاب الجليل مصوناً عن التحريف وإليك المجموعة الثانية.

المجموعة الثانية

وهي الآيات التي تصف القرآن الكريم بأنه نور وعزيز، وحكيم وحميد، فالحكيم لا بطلان فيه، والعزيز هو الذي لا يمكن التأثير فيه، والنور هو الذي لا ظلمة فيه والحميد هو المحمود فلو كان للتحريف مجال في كتاب الله تعالىٰ لم يكن القرآن عزيزاً لأنه أمكن التأثير فيه، ولم يكن حكيماً إذ وقع البطلان فيه، وما كان نوراً لحصول الظلمة فيه، وما كان محموداً حيث زال مقتضي الحمد فيه، والعياذ بالله ومن ضمن آيات هذه الطائفة قوله تعالى:

﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾[1]

---

(١) السجدة / ٤٢ ـ ٤٢.

والآية الكريمة قد نفت الباطل بما هو طبيعة عن القرآن وفي ذلك دلالة على نفي كل باطل صغيراً كان أو كبيراً.

وحيث ان التحريف باطل من الاباطيل فالقرآن منزه عنه ومعصوم.

وآيات هذه الطائفة بين مصرح بوجود هذه الصفات في القرآن الكريم، وبين ماهو ملوح لها، كقوله تعالى:

﴿حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾(١)

وكقوله تعالى:

﴿حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾(٢)

وذلك لأن القرآن مظهر من مظاهر صفاته تعالى حيث يقول الأمير عليهم السلام في ذلك:

«فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته»(٣)

فتكون صفة العزة والحكمة اللتين هما من صفاته تعالى صفات لكتابه وحيث أنه الحي الذي لا يموت والذي ليس كمثله شيء فكتابه حي لا يموت وكتابه ليس كمثله كتاب.

وهذه المجموعة الثانية كما هو ظاهر تدل على صيانة الكتاب عن كل انواع الباطل والتي أحد أنواعها التحريف بالمعنى المتنازع فيه، والذي من شأنه نسخ النبوة وابطالها.

---

(١) غافر / ١ و ٢.

(٢) الجاثية / ١، ٢.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٤٧ صبحي الصالح.

المجموعة الثالثة

وهي آية سورة الحجر وهي قوله تعالى:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾ (١)

فلقد اشتملت على عدة توكيدات مثل إنا، ونحن، والجملة الاسمية واللام، ولعل اللام في لحفاظون جواب قسم مما يزيد في التوكيد. ودلالة الآية أوضح من أن نقرب الاستدلال بها.

وقد أوردت عدة ايرادات على الاستدلال بهذه الآية الكريمة لم تصمد أمام الرد والمناقشة، ونحن نرجعك إليها في مظانها من كتابي الميزان للعلامة الطباطبائي والبيان للسيد الخوئي طلباً للإختصار وفراراً من التكرار.

اشكال مشترك على الاستدلال بالمجموعات الثلاث:

إلا أن هذه الطوائف الثلاث من الآيات الكريمة يمكن أن يعترض طريق الاستدلال بها مشكلة عويصة وخطيرة، إن تمت فهي كفيلة باسقاط هذه الآيات عن الدلالة على المطلوب، وحاصل هذه المشكلة هو: إن الاستدلال بهذه الآيات على صيانة القرآن من التحريف يلزمه الدور المصرح وهو محال فلا يتم الاستدلال بها.

بيان ذلك: لما كان مدعي وقوع التحريف في القرآن يدعي وقوعه بشكل إجمالي لا تفصيلي، فإنه من المحتمل حينئذٍ أن تكون كل آية من

---

(١) الحجر / ٩.

آيات القرآن محلاً للنقيصة أو التبديل والتغيير.

وإذا كان كذلك فإن هذه الآيات في الطوائف الثلاث بعض آيات القرآن فتكون محتملة لوقوع التحريف فيها فتكون النتيجة كالتالي.

نعلم أن القرآن الكريم قد وقع التحريف فيه، علماً اجمالياً.

وهذه الآيات من القرآن الكريم فيحتمل التحريف فيها.

فيكون محتمل التحريف وهو الآيات التي استدل بها دليلاً علىٰ نفي التحريف عن معلوم التحريف اجمالاً وهو القرآن الكريم جملةً.

فتوقف محتمل التحريف علىٰ محتمل التحريف، وفي هذا دور مصرح واضح باطل.

دفع هذه العويصة:

أجاب بعض الأعاظم عن هذه المشكلة بما حاصله:

إن هذا الاشكال إنما يرد على من فكك بين القرآن والعترة حيث قال: حسبنا كتاب الله، وترك العترة.

أما من تمسك بهاما معاً ولم يفكك بينهما فإن هذا الاشكال لا يرد عليه إذ أن الأمر عنده لا يصل إلىٰ توقف القرآن علىٰ القرآن، وإنما نستكشف من خلال أمر العترة لنا بعرض رواياتهم علىٰ القرآن الكريم بأن القرآن لم يقع فيه التحريف وإلا فيكون أمرهم لنا إغراءاً بالجهل. لأنهم أمرونا بالرجوع إلىٰ كتاب محرف، وروايات العرض كما هو معلوم متواترة ولسانها عام آب عن التخصيص.

فإذن توقف القرآن علىٰ العترة وليس في ذلك دور، ومن ثم فإن

الاستدلال بهذه الآيات تام ولا خدشة فيه.

إلا أن هذا الجواب لا يدفع المشكلة ـ كما سيتضح ـ وإنما يوجد مشكلة أخرىٰ أشد تعقيداً وأكثر خطورة، وهي جعل الحديث أصلاً معتمداً يثبت الحجية للقرآن.

وهذا الجواب أيضاً يرد عليه الدور المصرح السابق. وبيان الدور كالتالي:

إذا كنتم تقولون إن كلام المعصوم حجة وبه نثبت حجية القرآن الكريم فإننا نسألكم ما هو المدرك الذي يثبت حجية كلام المعصوم «ع»؟

إن قلتم إن الدليل علىٰ حجيته هو قول رسول الله «ص»:

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي»(١)

قلنا لكم مرة أخرىٰ فما هو دليل حجية كلام الرسول «ص»؟

إن قلتم: القرآن الكريم عاد الدور الذي تريدون الفرار منه، وهو توقف القرآن علىٰ كلام المعصوم، وتوقف الأخير علىٰ الأول ونتيجة ذلك بعد حذف الحد المشترك توقف القرآن علىٰ نفسه أو كلام المعصوم علىٰ نفسه وهذا دور مصرح بين. وعليه فلا يصلح هذا الجواب لرد الدور.

وإن قلتم نلتزم بأن حجية القرآن متوقفة علىٰ كلام المعصوم وحجية كلام المعصوم ليست متوقفة وإنما هي متوقفة علىٰ المعاجز الأخرىٰ كانشقاق القمر، وتسبيح الحجر، وغيرها من المعجزات،

---

(١) وذلك من خلال قوله تعالى: «ما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا»

وبذلك لا يعود الدور كما قلتم.

قلنا: إن هذه المعجزات إنما تصلح دليلاً لمن رآها وعاينها أما من لم يرها وهو كل من جاء بعد عصره «ص» أو لم يره «ص» مطلقاً فلا تصلح دليلاً عليه إلا إذا نقلت بالتواتر المفيد القطع، وحيث أنه لا تواتر في المقام فلا يمكن الاعتماد عليها، لأن هذه المسألة مسألة عقائدية لابد فيها من اليقين ولا يفيد الظن فيها ولا يغني من الحق شيئاً.

لذا فإننا إما أن نسلم بهذا الاشكال ونذعن بإيراده، ونقول بأن الدليل الثاني لا يصلح دليلاً، وإنما الذي يصلح دليلاً على صيانة القرآن فقط هو الدليل العقلي.

وإما أن نبحث عن جواب آخر ندفع به هذا الاشكال غير الجواب الذي أجاب به بعض الأعاظم.

وهنا يمكن لنا أن نجيب بأحد جوابين:

الجواب الأول: إن القرآن الكريم قد وصف نفسه بعدة أوصاف، وفي عدة آيات فوصف نفسه بأنه لا اختلاف فيه ولا تناقض، وأنه يصدق بعضه بعضاً وينطق بعضه ببعض، فقال تعالى:

﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(١)

كما قال عز من قائل:

﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود

---

(١) النساء / ٨٢.

الذين يخشون ...﴾[1]

ووصف نفسه أيضاً بأنه نور، وهدى، وتبيان لكل شيء، وأنه عزيز، وذكر ولا يمكن للجن والإنس مجتمعة ومتفقة أن تأتي بمثله، قال تعالى:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[2]

وغيرها من الأوصاف المذكورة فيه.

لذا فإن مدعي وقوع الدور في الاستدلال بالآيات نقول له افحص القرآن من أوله لآخره، فإن كان الوصف منطبقاً على الموصوف وموافقاً له، فلا تحريف في القرآن لأنه لا يمكن لأحد غير الله تعالى أن يأتي بشيء لا اختلاف فيه وخلال مدة ٢٣ سنة، من الأحوال المختلفة والمتضادة من الحرب والسلم، والشدة والرخاء وغير ذلك.

ولو حصل التحريف في الكتاب العزيز بالنقيصة وهو المعنى المتنازع فيه، وكان هذا التحريف بفعل الظالمين، فلا يمكن أن يبقى القرآن الكريم على صفاته من دون اختلاف، ومن دون تأثر، واختراق، لأن التحريف من عند غير الله.

وبالتالي فلن ينطبق الوصف الموجود في القرآن على نفس القرآن.

أما، وأنه قد انطبق الوصف على الموصوف فلا تحريف، ولا دور

---

(١) الزمر / ٢٣.

(٢) الاسراء / ٨٨.

لأن اثبات صيانة القرآن لم تتم من خلال توقف الآيات على نفسها كما تقدم في تصوير الدور وانما اعتمدنا في اثبات صحة الآيات النافية لوقوع التحريف في القرآن وعدم النقيصة فيه على الآيات الواصفة للقرآن بالأوصاف المتقدمة، واعتمدنا في اثبات هذه الآيات الأخيرة على الواقع الخارجي من خلال فحص القرآن من أوله لآخره والتأكد من انطباق الوصف على الموصوف.

وبهذا الجواب يندفع الدور، وتبقى دلالة الآيات على صيانة القرآن من التحريف سالمة، وتامة.

الجواب الثاني: وهذا الجواب يعتمد على ثلاث مقدمات.

الأولى: إن المستفيد الوحيد من تحريف القرآن وتبديله، والانقاص منه هم الذين يعادون القرآن ويعارضونه، لأنه يتنافى مع مصالحهم الشخصية والدنيوية.

الثانية: إن مريدي تحريف القرآن الكريم يريدون أن تبقى الأمة متمسكة به بعد التحريف. وإلا فلا يتحقق غرضهم في صرف الناس عن الدين إلى أهواءهم.

الثالثة: إن هذه الفرقة لا مصلحة لها في اسقاط آية متكررة، كقوله تعالى:

﴿فبأي ألآء ربكما تكذبان﴾[1]

التي تكررت أكثر من ثلاثين مرةً، كما لا مصلحة لها في اسقاط

---

(١) الرحمن / ١٣.

حرف لا يؤثر على الخطوط العامة للدين.

وانما تنصب مصلحة هذه الفرقة في اسقاط آية أو حرف يؤثر على الخطوط العامة، والكلية للدين، بحيث يغير العقائد كالتوحيد مثلاً، أو العدل أو الامامة أو المعاد وغيرها.

فإذا اتضحت هذه المقدمات الثلاث نقول:

إن مريد التحريف لما كان من مصلحته أن تبقى الأمة متمسكة بالقرآن بعد وقوع التحريف فيه، فليس من مصلحته أن يحرف نفس الآيات النافية للتحريف عن القرآن، والدالة على صيانته، بل لابد له ـ حتى يتم غرضه ـ من ابقاءها على حالها فتتمسك الأمة بها، وتنفي التحريف عن الآيات الأخرى التي تمكن هو من تحريفها وتعمل بها، وبالتالي يتحقق غرضه المطلوب.

فإذا ثبت أن الآيات الدالة على صيانة القرآن من التحريف لم تنلها يد المحرف فنقول: إن الله لما كان أصدق الصادقين، وهذه الآيات الدالة على الصيانة من كلامه فإنه دليل على صيانة كل القرآن عن التحريف بلا استثناء، وعليه تكون دلالة الآيات تامة، ولا دور وارد عليها لأننا اثبتنا بدليل خارج أنها غير محرفة.

إن قلت: إن من مصلحة مريد التحريف أن يقع التحريف في خصوص الآيات الدالة على الصيانة، وتتبدل دلالتها الى العكس، ومن ثم تشك الأمة في قرآنها فلا يعتمد عليه، ولا تتمسك به.

قلت: هذا الاحتمال بعيد أشد البعد إن لم يكن مستحيلاً، إذ كيف يمكن للأمة أن تنحرف عن قرآنها بعد أن شب عليه الصغير، وشاب عليه

الكبير، وبعد أن شاع في أوساطها وانتشر، وحفظت آياته، وطبقت أحكامه. وسنجد فيما بعد في السير التاريخي لهذه المسألة مدى الصعوبة التي واجهها معاوية وغيره عندما أرادوا أن يسقطوا حرفاً واحداً من القرآن.

وبهذا ننتهي من الدليل الثاني الدال على صيانة القرآن من التحريف وننتقل إلى الدليل الثالث وهو الروايات.



الدرس الرابع

الدليل الثالث: الروايات

وهي طوائف أربع:

الطائفة الأولى: هي الروايات الداعية إلى اللجأ للقرآن الكريم لاتقاء الفتنة عند حصولها وبغية التخلص منها.

فلو كان القرآن محرفاً كيف يمكن له أن يدفع الفتن، بل هو في هذه الحالة مجلبة للفتن.

الطائفة الثانية: وهي الروايات الآمرة بعرض الحديث المعصومين عليهم السلام على القرآن فإن وافق أخذنا به والا فلا.

وهذه الروايات كما هو واضح من لسانها أنها آبية عن التخصيص فإن لسانها لسان العموم لأنها في مقام بيان قاعدة كلية في قبول الأحاديث.

ويستفاد من هذه الروايات أن القرآن ميزان لجميع المعارف التي

يمكن أن توجد في الروايات.

الطائفة الثالثة: وهي الروايات الحاكية للسيرة العملية للائمة عليهم السلام، حيث أنهم في احتجاجاتهم، واستدلالاتهم يرجعون إلىٰ القرآن الكريم ولا يقولون بأنه محرف، ولا يمكن الرجوع إليه والاستفادة منه.

الطائفة الرابعة: وهذه هي عمدة كل الطوائف، لأنها من الروايات المتواترة بين الفريقين، وهي روايات الثقلين.

والنبي «ص» قد أمر بالتمسك بهما أي القرآن والعترة، ولا يمكن أن يتعقل أنّ النبي «ص» يأمر بالتمسك بشيء محرف أو مزيف.

وقد أوردت علىٰ هذه الطائفة اشكالات وايرادات لا تصمد أمام البحث يمكن لمن أرادها مراجعتها في كتاب البيان للسيد ابو القاسم الخوئي «ره».

هذه خلاصة الدليل الثالث، ولم نذكر رواياته لأنها موجودة في كتب المجاميع كالبحار والكافي فيمكن مراجعتها هناك فيما يتعلق بالقرآن.

تذييل نافع:

قد استدل علىٰ صيانة القرآن عن الزيادة بالإجماع، ولكن هذا الدليل غير نافع في المقام لأن الاجماع لا يفيد أكثر من الظن إذ أنه

انضمام ظنون مختلفة إلىٰ بعضها البعض، والمسألة عقائدية تحتاج إلى القطع واليقين بعدم الزيادة في القرآن.

وربما استدل بالحديث النبوي:

«لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة أو علىٰ خطأ»[1]

ولكن هذا الاستدلال ساقط لأنه متوقف علىٰ صحة النبوة وثبوتها والأخيرة متوقفة علىٰ حجية القرآن، وفي هذا دور واضح ومن أراد تفصيلاً أكثر في المقام فليراجع الميزان في تفسير القرآن ج ١٢ ص ١١٠ في بيان بطلان الاجماع.

هذا تمام الكلام في الاستدلال بالرويات. وينضم إليها الروايات الآمرة بقراءة السورة في الصلاة فلو كان القرآن محتمل التحريف كيف يأمر أهل البيت بقراءته في الصلاة؟.

الدليل الرابع: السير التاريخي

وقد وفاه سماحة آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي بما لا مزيد عليه في كتابه الخالد البيان ص ٢٣٤ فراجعه.

إلا أننا نذكر بعض الحوادث التاريخية في هذا المقام يظهر من خلالها مدىٰ اهتمام المسلمين بكتاب الله عز وجل.

فقد نقل السيوطي فى الدر المنثور: ان عثمان بن عفان قال: لما أراد

---

(١) سنن ابن ماجه / ج ٢ / ص ١٢٠٣ والحديث هو عن أبي خلف الأعمى قال: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله «ص» يقول: إن أمتي لا تجتمع علىٰ ضلالة ... فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم.

أن يكتب أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءة، والذين يكنزون الذهب والفضة. قال لهم أبي: لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي، فألحقوها.[١]

وينقل السيوطي في نفس المصدر في ص ٢٦٩ قوله[٢]

أخرج أبو عبيد وسنيد وابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه عن حبيب الشهيد عن عمرو بن عامر الأنصاري أن عمر بن الخطاب قرأ والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار الذين اتبعوهم باحسان فرفع الانصار ولم يلحق الواو في الذين، فقال له زيد بن ثابت والذين، فقال عمر الذين، فقال زيد أمير المؤمنين أعلم، فقال عمر: أئتوني بأبي بن كعب، فأتاه فسأله عن ذلك فقال أبي: والذين، فقال عمر: فنعم إذن فتابع أبياً.

وفي ذلك دلالة على ان القرآن بمكان كبير وعظيم من الأهمية لدى المسلمين بحيث أنهم على استعداد بأن يضحوا بأنفسهم في سبيل المحافظة على عدم تغير وتبديل فيه، ولو بحرفٍ واحد.

أما تفصيلات هذا البحث فنحيلك فيها إلى كتابي الميزان والبيان فراجع.

بقي في البحث شيء واحد وهو الشبهات التي تمسك بها مدعو التحريف كأدلة على دعواهم، ورد هذه الشبهات، وفي الحقيقة ان البحث فيه قد استوفاه السيدان الأجلان الطباطبائي والخوئي بما لا مزيد عليه فيمكن مراجعته هناك.

---

(١) الدر المنثور / ج ٣ / ص ٢٣٢ / تفسير سورة التوبة آية ٣٤، ٣٥.

(٢) المصدر السابق / آية ١٠٠ من سورة التوبة.

وإن قد قرره الشيخ الأجل في درسه ببيان لطيف ومنطق سلس، وأكثر فيه من ذكر الروايات إلا أننا أثرنا عدم الإطالة والتكرار، والله المستعان.

«وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.»



خلاصة المقدمة الثانية

وحيث أننا قد استخلصنا ما ورد في المقدمة الأولىٰ علىٰ شكل نقاط مجملة نحاول هنا أن نلخص ما في المقدمة الثانية كذلك:

١ ـ أن للتحريف عدة معاني مختلفة، وهناك معنى واحد منها هو الذي وقع فيه الخلاف.

٢ ـ أن الرسالة الالهية التي تحملها نبينا محمد «ص» قد حفظت في مراحل ثلاث وهي مرحلة الحفظ ـ والتلقي ـ والابلاغ.

٣ ـ أن القرآن الكريم قد هيمن علىٰ ما تقدم عليه من الكتب وحوى كل ما فيها.

٤ ـ أن دعوىٰ تحريف القرآن تتعارض مع كونه هادياً ويمنع من الاستفادة منه.

٥ ـ توجد طرق ثلاث للتحدي وهي ـ المنع ـ النقض ـ المعارضة.

٦ ـ أن الله هو الذي تكفل بحفظ القرآن فلا يمكن لاحد أن يزيد فيه أو ينقص منه وأن القرآن مظهر للصفات الإلهية.

٧ ـ الأدلة الدالة علىٰ صيانة القرآن وهي:

العقل ـ النقل ومنه القرآن ـ السنة ـ الحوادث التاريخية.

٨ ـ أن أقسام الاعجاز ثلاثة والقرآن أرقاها وأعظمها وهو ما كان معجزاً حدوثاً وبقاءاً.

٩ ـ إن الاجماع لا يصلح دليلاً علىٰ صيانة القرآن عن التحريف

لكونه متوقفاً علىٰ القرآن.

إن مدعي التحريف قد تمسك الشبهات كلها داحضة ضعيفة.

هذه أهم النقاط الرئيسية في هذه المقدمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قم المقدسة

٢٢ / صفر / ١٤١١ هـ





تفسير

﴿ سورة الفاتحة ﴾





مقدمة التقرير

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

تمثل هذه الدروس العشرة خلاصة ما ألقاه شيخنا الأستاذ في تفسير سورة الفاتحة المباركة التي هي أم القرآن وأصله بما أشتملت عليه من أمهات المسائل من الحمد، والثناء، والعبودية، والتوحيد، والمعاد، وبعبارة موجزة تمثل هذه السورة المبدأ والمعاد، وما بينهما وهو الصراط المستقيم.

وقد حاولت أن أرتب مطالبها وبحوثها بحسب ما أتيح لي من الوقت والوسع، وجعلتها على شكل دروس ليسهل على القارىء التعامل معها والتباحث فيها.

وحرصت جاهداً أن أجعلها واضحة ميسرة مع شيء من الاختصار والاقتصار على ما يرتبط بآياتها دونما سواه.

والله أسأل أن يعمم النفع بها إنه على كل شيء قدير.

وقد وجدت أنه من المناسب أن أشير بشكل مختصر جداً إلى منهج الشيخ في تفسيره سواءاً كان موضوعياً أو ترتيبياً، فبينته عبر هذه الأسطر.

منهج الشيخ الآملي في تفسير القرآن:

من خلال التلمذ في تفسير القرآن الكريم على سماحة آية الله العظمى الشيخ عبدالله الجوادي الآملي حفظه الله. ومن خلال متابعة دروسه في التفسير لمدة سنتين يمكن اسكتشاف المنهج التالي لديه.

يعتمد في دروسه التي يلقيها في المسجد الأعظم في قم المقدسة طريقة التفسير التجزيئي للقرآن الكريم، فقد بدأ ومنذ حوالي أحد عشر سنة بمقدمات في تفسير القرآن بين فيها المنهج الصحيح في تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة. وأثبت من خلالها سلامة القرآن وعصمته عن التحريف ثم شرع في تفسير سورة الحمد، وبعدها سورة البقرة، ثم سورة آل عمران، وهو الآن فعلاً في تفسير سورة النساء. وقد فسر سورة الرعد أيضاً بأكملها، وهو مستمر في هذه الطريقة الىٰ أن ينتهي من السور جميعها إن شاء الله تعالى.

هذا بالاضافة إلىٰ أن سماحته «حفظه الله» يمارس طريقة التفسير الموضوعي، ويقدم بحوثاً قرآنية بين فترة وأخرىٰ في مختلف الميادين فله:

بحث الكرامة في القرآن

بحث الهداية في القرآن

بحث الولاية في القرآن

بحث المرأة في القرآن

بحث حقوق البشر في القرآن

وغيرها من البحوث. وله منهج وقواعد يعتمدها في التفسير الموضوعي سنشير إليها أن شاء الله تعالىٰ خلال البحث.

وعلى كل حالٍ فهو مستمر في التفسير التجزيئي، وبشكل يومي على شكل دروس متتابعة يحضرها جمع كبير من طلبة الحوزة في قم المقدسة.

يعتمد الشيخ وبشكل أساسي، وكبير على بحوث أستاذه العلامة الطباطبائي في كتاب الميزان، ويقرر نظرياته، ويحاول تشييدها، وقلما يشكل عليها أو يخالف أستاذه فيها.

كما وأنه يرىٰ أن أفضل طريقة لتفسير القرآن الكريم سواءاً كان على مستوىٰ التفسير الموضوعي أو التفسير التجزيئي هي طريقة تفسير القرآن بالقرآن، وقد بينها، وأقام الدليل عليها في دروسة في مقدمات التفسير. وهي أيضاً طريقة السيد العلامة في تفسيره الميزان.

يحاول الشيخ أن يبين أولاً المعنى الاجمالي للمجموعة التي يتعامل معها من الآيات ثم يشرع في البحث التفصيلي فيها. وفي مفرداتها. وجزئياتها.

يعتمد في البحث اللغوي على كتاب الراغب في المفردات، كما أنه له أجتهاداته الخاصة في بعض المباحث اللغوية، والتي من ضمنها أن القرآن الكريم بعد أن ثبت كونه وحياً من عند الله تعالىٰ فلا داعي لأن نتكلف البحث عن شواهد لتركيباته، وأسلوبه في كلام العرب، فإن طابقت الشواهد القرآن فبها ونعمت، وإن لم تطابقه، فلا حاجة لأن

نتكلف تخريجاً يجعلها بالنتيجة مطابقة له.

لأن هذا الأمر قد نحتاجه قبل مرحلة اثبات كون القرآن وحياً لأجل دعم أنه من عند الله وأما بعد ثبوت هذه المسألة وأنه لا شك في كونه من الله تعالىٰ فلا داعي للتكلف في تطبيق كل آية منه على شاهد من كلام العرب.

يحاول الشيخ أن يطرح آراء أساطين التفسير في البحث التفسيري، ويناقشها مناقشة علمية موضوعية من دون أن تحول شخصية المفسر، واتجاهه دون الموضوعية في المناقشة فهو يناقش التبيان للشيخ الطوسي، ومجمع البيان للطبرسي، كما ويناقش التفسير الكبير للفخر الرازي، وجامع أحكام القرآن للقرطبي، والكشاف للزمخشري، كما أنه يحاول أيضاً مناقشة التفاسير المتأخرة كتفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وتفسير الكاشف للشيخ محمد جواد مغنية وآلاء الرحمن للشيخ البلاغي، وغيرها.

وبحكم تعمق الشيخ حفظه الله في البحث العقلي والفلسفي فهو من أساتذة الحكمة المتعالية، والعرفان في الحوزة العلمية فإنه يتمتع بقدرة عقلية فائقة في مقام المناقشة العقلية خصوصاً مع الإمام الرازي الذي يحاول أن يستظهر من الآيات الكريمة مسألة الجبر من خلال النقاش والبحث العقلي. وله معه مناقشات كثيرة حول مواضيع مختلفة.

وأما اعتماده على الروايات في التفسير فإنه يرىٰ أن كثيراً من الروايات التي جاءت في تفسير القرآن الكريم قد جاءت لبيان أكمل المصاديق، وأظهرها من دون أن تحصر الآية في تلك الرواية. والمستفاد

من طريقته في قبول الروايات أنه لا يعتمد السند بالدرجة الأولىٰ في تصحيح الرواية أو تضعيفها، وإنما يعتمد وبشكل أساسي وكبير على المتن، ولعله يصرح أحياناً بذلك لذلك فإنه يعتمد بشكل كبير على نهج البلاغة لإمام المتقين «ع» في التنظير بين الآية من حيث موضوعها وبين خطب النهج، فمنها تفسيره لقوله تعالىٰ «ولتكن منكم أمة يدعون الىٰ الخير...» فإنه استطرد في بحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نهج البلاغة، وكذلك في تفسير قوله تعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» فعلى كل هو يرىٰ الجري بالنسبة للروايات، كما انه لا يعتمد السند أساساً.

وأما رأيه في أسباب النزول فإنه يرىٰ أنها مؤيدات لتفسير الآية ويفصل بين التي يصل سندها إلىٰ المعصوم فيرىٰ أنها تذكر مصداقاً للآية، وبين التي لا ينتهي سندها إليه «ع» فيرىٰ أنها رأىٰ كبقية آراء المفسرين فيمكن للمفسر أن يتعامل معه كرأىٰ اجتهادي يقبله أو يرده.

ورأيه في المحكم والمتشابه كرأي استاذه الطباطبائي في الميزان.

وأما رأي الشيخ في التفسير الموضوعي، فإن التفسير الموضوعي لديه هو البحث الذي يتعهد موضوعاً خاصاً قد طرحه القرآن الكريم، وحلله حالة كونه غير منفصل عن العترة ولا هي منفصلة عنه لأنهما بحسب الرواية لن يفترقا فالنتيجة أن البحث سيطرح من خلال القرآن والعترة وبالتالي من خلال الاسلام، لأن الاسلام عبارة عن مظهر لهما مجتمعين.

وأما النسبة والعلاقة بين التفسير الموضوعي. والتفسير التجزيئي فهي عبارة عن تقدم التفسير الترتيبي على الموضوعي وتأخر الموضوعي عن الترتيبي.

فلابد لمن أراد التفسير الموضوعي أن يلم بتفسير القرآن التجزيئي من أوله لاخره بحيث تكون جزئيات المسائل وفروعها في ذهنه حتى يتمكن أن يتولىٰ عملية التفسير الموضوعي حينئذٍ. فيختار بعدها موضوعاً ما ويجمع جميع آياته المتعلقة به تصريحاً وتلويحاً، ثم يجمع الروايات في هذا الصدد. ويحاول الجمع أخيراً بين الآيات والروايات ليظهر رأي الاسلام في ذلك الموضوع.

ويرىٰ أن التفسير الموضوعي لابد أن يمر بمراحل ست:

المرحلة الأولى: جمع جميع الآيات التي طرقت موضوعاً معيناً. مع بذل أكبر مقدار من الوسع والطاقة في جمعها المثبت منها لذلك الموضوع والنافي له وعدم الاكتفاء بالآيات التي تشير إلى الموضوع بذكر لفظه أو اشتقاقات تلك اللفظة.

المرحلة الثانية: عملية الجمع الفني بين الآيات بمعنى تقييد المطلقات بمقيداتها والعمومات بمخصصاتها وتبيين المجملات بمبنياتها، والمتشابهات بمحكماتها، وكل مناسب بما يناسبه حتى يتوصل إلى أفضل النتائج في استكشاف رأي القرآن الكريم.

المرحله الثالثة: عملية جمع الروايات المتعلقة بموضوع البحث نفياً، واثباتاً بحيث يطمئن المفسر إلىٰ أنه قد جمع أكبر مقدار متعلق بهذا البحث إذا لم يكن كل الروايات. وسواء كان المتعلق منها بالقول أو بالفعل.

المرحلة الرابعة: الجمع بين هذه الروايات بالجمع الفني الذي تقدم في المرحلة الثانية بين الآيات.

المرحلة الخامسة: استخلاص نتائج الآيات بعد عملية التمحيص والجمع وجعل نتائجها كأصول مهمة. وكذلك بالنسبة للروايات.

المرحلة السادسة: محاولة الجمع والمقارنة بين اصول الآيات، وأصول الروايات لاستنباط النتيجة النهائية الكاشفة عن رأي الكتاب والعترة الطاهرة.

ثم أن الشيخ حفظه الله يرىٰ أنه بعد اجتياز هذه المراحل الست، فإن الأدب الديني والاحتياط العلمي يقضي بأن يقول الباحث ان مقتضى الجمع بين الآية وتلك الرواية هو المعنى المعين، لا أن يقول إن هذا هو رأي الاسلام.

وإذا أراد أن يقول بأنه رأي الاسلام أو أراد أن ينقل رأي الاسلام فلا يسنده إلىٰ نفسه، ولينقل تحقيق المحققين في المراحل الست المتقدمة ويقول بأن هذا هو رأي محققينا في هذه الأمور حيث أن نظر

الاسلام فيها هو كذلك.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحَمدُ للهِ رَبِ العَالِمينَ ، الرَّحمَنِ
الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَومِ الدّينِ ،إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ
نَستَعِينُ ، إهدِنَا الصِرَاطَ المُستَقِيمَ ، صِراطَ الَّذِينَ
أنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِم وَلاَ
الضّالّينَ. ﴾

صدق الله العلي العظيم





الدرس الأول

في تفسير سورة الفاتحة

سورة الفاتحة المباركة التي هي في أول القرآن الكريم لها عدة اسماء، منها الفاتحة، وأم الكتاب، وأم القرآن، والمثاني، والسبع المثاني، وغير ذلك[1].

واشهر اسمائها أنها الفاتحة، وقد جاء في النصوص المعصومية بأنه.

«لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[2]

وحيث أن هذه السورة تحتوي على الكثير من المباحث والمضامين فقد تعددت اسماؤها واختلفت ولكل منها أسرار متعلقة به.

وهي طبعاً سبع آيات تبدأ بالبسملة وتنتهي بالضالين بحيث أن الصلاة لا تصح ألا بها مع البسملة.

---

(١) مجمع البيان ج ١ ص ١٧.

(٢) مستدرك الوسائل ج ٤ ص ١٥٨ باب ١ رقم الحديث ٤٣٦٥.

البحث في البسملة:

البسملة في القرآن الكريم نزلت ١١٤ مرة بالتحديد مائة وثلاثة عشر مرة في بداية السور كلها عدا سورة البراءة على القول بأنها سورة مستقلة، وليست جزءاً من سورة الأنفال، ومرة واحدة في سورة النمل في قولة تعالى:

﴿إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾[1]

وهي كما هو معلوم تمثل البداية التوفيقية لكل سورة والنهاية التوقيفية للسورة التي تسبقها.

معاني البسملة:

في كل مرة تنزل فيها البسملة فإنها تحمل معنى جديداً يختلف عن المعنى السابق الذي نزلت من أجله والمعنى الذي تتضمنه البسملة مع كل سورة إنما تمثل معنى يناسب محتوىٰ السورة التي هي فيها.

والبسملة في سورة الحمد تتناسب والمعاني الموجودة في السورة من حيث الحمد لله تعالىٰ ورحمانيته ورحيميته. واظهار العبودية له والاستعانة به وغير ذلك مما ورد في سورة الفاتحة.

وعلى كل حال فإن كل بسملة في كل سورة إنما هي بسملة تناسب محتوىٰ السورة وتناسب الهدف الذي تسعى السورة لتحقيقه.

والبسملة التي في أول القرآن مثلاً تنسجم وهدف القرآن الذي هو الهداية والنور، والشفاء، والهدى.

(١) النمل / ٣٠ قال في الميزان ج ١٥ / ص ٣٥٨ : أي أن الكتاب باسمه تعالىٰ فهو كريم لذلك.

والبسملة التي في الحواميم السبع وهي التي تبدأ بـ «حم»[١] تشترك فيما بينها في الهدف العام لهذه السور تختص كل واحدة منها بهدفها الخاص وكذلك في المسبحات الست[٢]، وهي التي تبدأ، بسبح أو يسبح أو غيره وقد عد المجلسي منها سورة الاسراء لانها تبدأ بقوله تعالىٰ سبحان الذي اسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصى[٣].

لماذا البسملة:

القرآن الكريم بدأ بالبسملة، وجعل كل سورة تبدأ بها سوى البراءة لكي يعلم الله تعالىٰ بها الناس كيفية البدء في كل اعمالهم من دون استثناء.

ولذا فقد تواتر عند الفريقين فيما رووه عن النبي «ص» أنه قال:

«كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»[٤]

والأبتر هو المنقطع الآخر الذي لاهدف له، ولا نتيجة ترتقب من وراءه إذ أن كل عمل لابد أن تكون له نهاية فإن لم يكن مبدوء باسمه تعالى فإنه ينتهي بلا هدف ويكون أبتراً.

ولذا قيل ـ كما في بعض كتب المعقول ـ فطانة بتراء لصاحب

---

(١) وهي: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الاحقاف.

(٢) وهي: الحديد، الحشر، الجمعة، التغابن، الصف، الأعلى.

(٣) الإسراء / ١.

(٤) الميزان ج ١ / ص ١٦ راجع بحار الانوار / كتاب الاداب والسنن باب الافتتاح بالبسملة ٧٦ / ٣٠٥.

الذكاء الذي يستعمل ذكاءه في الباطل ولا يسخره لخدمة الحق.

وأما العمل الذي يبدأ باسمه تعالى، ويكون منشؤه الحق تبارك وتعالىٰ فهو الذي يصل آخره بأوله، ولا يكون أبتراً، فمتى بدأ بالحق انتهى بالحق وحقق الهدف الحق، إذ أنه من غير المعقول أن الحق يوصل إلى الباطل كما أنه من غير المعقول أيضاً أن الباطل يوصل إلىٰ الحق.

الحسن الفعلي والفاعلي في اعمال الحق والخير:

إن كل فعل وعمل من أعمال الحق له حسنان، حسن فعلي وحسن فاعلي، وذلك لأنه في نفسه حق، وخير، وهذا هو الحسن الفعلي الراجع الىٰ نفس الفعل، وأيضاً فإن الانسان حين يبدأ في عمله باسم الله تعالى وهو يسنده له تبارك وتعالى، فهذا هو الحسن الفاعلي أي فاعله حسن وهو الله تبارك وتعالىٰ أو الانسان الذي أسنده لله تعالى.

وعليه، فلابد من توافر هذين الحسنين في كل عمل حتى يتمحض في الحق والخير، وإذا فقد أحدهما فإنه يكون باطلاً، وذلك كما قال الخوارج في مسألة رفع المصاحف:

«لا حكم إلا لله»[1]

فإن هذه الكلمة عندما سمعها أمير المؤمنين عليه السلام قال: «كلمة حق يراد بها باطل»[2].

فواضح ان الكلمة التي قالها الخوارج بما هي فعل حسنة وحقةٌ إلا

---

(١) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة ٤٠ ص ٨٢.

(٢) نهج البلاغة / صبحي الصالح / خطبة ٤٠ / ص ٨٢.

أن الفاعل لم يكن يتمتع بالحسن الذي ينبغي أن ينضم الىٰ الحسن الفعلي حتى يكون العمل خيراً وحقاً. فلذا قال عليه السلام نعم هي كلمة حق أي حسنة كفعل من الافعال ولكنها أريد بها باطل أي أراد بها صاحبها باطلاً. فهذا العمل لا ثمرة فيه وهو أبتر.

ثم أننا إذا رجعنا للحديث النبوي الشريف مرة أخرىٰ فإننا نجده قال كل أمر ذي بال، فإنه اشترط في الامر أن يكون ذا بال أولاً، وقبل كل شيء حتى بعد ذلك يبدأ فيه باسم الله فيرتفع نقصه وبتره.

وأما الأمر الذي ليس بذي بال فهو خارج تخصصاً عن الحديث لأنه أمر بين الغي، وهذا وإن بدأ فيه باسم الله فانها لا تنفع لانها قد شرطها النبي صلّى الله علّيه وآله وسلّم في الأمر ذي البال.

فالنتيجة هي أن العمل الذي ينبغي أن يصل إلىٰ الهدف ولا يكون أبتراً هو العمل الذي توفر على كل من الحسن الفعلي والفاعلي.

فأي عمل فقد أحد الوصفين فهو أبتر وإذا فقد الحسن الفعلي فهو غير مشمول للحديث الشريف.

وأما الأبتر الذي وردت في سورة الكوثر في قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾[1]

فهذا التعبير الذي كان بعض المشركين يعيرون به النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنه أبتر ـ حاشاه فإن هذا الفعل فيه قبح فعلي، وفاعلي لأنه في نفسه عمل باطل وكذب، وزور ولأن فاعله أراد به وجه الشيطان، وأراد به إرضاء هواه وشهواته الباطلة فهذا العمل أبتر في أقوىٰ مراتب

---

(١) الكوثر / ٣.

البتر، وأصحاب مثل هذه الأعمال هم الضالّون الذين لا يصلون إلىٰ هدف سوىٰ جهنم، ولكنهم متحيرون في كل مقاصدهم حتى في الوصول إلىٰ جهنم أيضاً هم متحيرون فلا يصلون إليها مباشرة.

قال تعالى:

﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً﴾(١)

والأبتر في الآية الكريمة ليس معناها الذي لا ينجب، وانما معناها الذي لا يمكن أن يصل الىٰ هدفه ومقصوده، لأن العقم ليس مشكلة تحرم الانسان من رضا الله تبارك وتعالىٰ ولا ينادي أحد يوم القيامة باسم ابنه أو باسم أبيه وإنما المشكلة أن يقع الانسان تحت سخطه تعالى.

وحيث أنه لابد في كل عمل من أعمال الخير أن يتوفر على الحسن الفعلي والفاعلي فقد علمنا الله تبارك وتعالىٰ دعاءاً يحقق لنا ذلك. قال تعالى:

﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً﴾(٢)

فهذه الآية الكريمة توضح لنا نهاية العمل وأنه حق وصدق، وذلك لأنه قد بدأ من الحق والصدق، وهذا مطلوب من الانسان في كل عمل حتى في أعماله اليومية والعادية.

فدليل نهاية العمل بحق وصدق هو بدايته بحق وبصدق وباسم الله

---

(١) النساء / ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) الاسراء / ٨٠.

ولله لأحد سواه فيدخل الانسان في هذه الدنيا ويخرج منها وهو يسأل الله أن يخرجه بصدق كما أدخله إليها بصدق وكذلك الأمر في البرزخ ويوم القيامة، وعلى الصراط إلىٰ أن يدخل الجنة.

إذن فلابد من الدعاء بالدخول والخروج في مداخل الصدق، ومخارجه. وذلك لأن الأنسان في بعض الأحيان لم يدخل في العمل بعد، ولكنه يتخيل أنه قد دخل فيه، وبعد ذلك حين يلتفت واذا به لم يدخل فلابد إذن من الدعاء.

لذا فإن الانسان الذي يبدأ في عمله باسم الله تعالى، ويطلب وجهه في عمله فإن أمره يكون محفوظاً ومصوناً حدوثاً وبقاءاً، وإنه يدخل في العمل مدخل صدق، ويخرج منه مخرج صدق ولا يبقى متحيراً فيه لأنه:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[1]

ويرزقه من حيث لا يحتسب في كل مسألة من دون استثناء ولا تخصيص.

---

(١) الطلاق / ٢ ـ ٣.



الدرس الثاني

تقدم الكلام في البسملة بشكل عام وإجمالي، ونشرع في هـذا الدرس إن شاء الله تعالىٰ في البحث التفصيلي في البسملة.

البحث التفصيلي في البسملة:

الجار والمجرور وهي بسم متعلق باستعين أو بابتدأ وهو الأولى لوجوب الاستعانة في الآية الخامسة وهي «أياك نعبد وإياك نستعين» وإنما يبتدأ الانسان المؤمن ببسم الله في هذه السورة المباركة لكي يصل الى هدف هذه السورة الذي بيناه في الدرس الماضي.

وللإنسان أن يمتحن نفسه في ذلك، أعني في الوصول لأهداف القرآن، من خلال ما يلحظه من النورانية القرآنية فى قلبه عندما يـقرأ القرآن ويتدبر فيه او يعي مطالبه.

ومما تقدم علم أن البسملة لها هذا القدر من القداسة، والعظمة بحيث أنه ينبغي للمؤمن أن لا يفارقها في كل عمل من أعماله، وكل حركة من حركاته.

وينبغي أن يعلم المؤمن بأن اسم الله تبارك وتعالىٰ مما يـنبغي

تقديسه، وتسبيحه وذكره في مواطن الحق والصدق، وعدم مساواته بغيره من الأسماء.

ولهذا فقد جعل الله تعالىٰ هذا الاسم العظيم، مظهراً للبركة، فقال تعالى:

﴿تبارك اسم ربك﴾[١]

كما أنه تعالىٰ جعل الأسم مظهراً للتسبيح، فإن في هذا الاسم بركات تنزيهة، كما أن فيه أوصافاً تشبيهية فقال عز من قائل:

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾[٢]

وكذلك قال تعالى:

﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾[٣]

والمراد من الصفات التشبيهية أنه تعالىٰ مصدر لجميع الخيرات مطلقاً، والمقصود من الأوصاف التنزيهية أنه منزه عن كل نقص وفقر بمعنى أنك تسلب عنه كل صفة من صفات النقص، والحاجة والاشتراك وغيرها لأنه تبارك وتعالى:

﴿ليس كمثله شيء﴾[٤]

كما أنه سبحانه:

---

(١) الرحمن / ٧٨.

(٢) الواقعة : ٧٤.

(٣) الأعلى / ١.

(٤) الشورىٰ / ١١.

«سبوح، قدوس»

وحيث أن هذا الاسم علامة لله تبارك وتعالى، أو دليل على سموه وعلوه، ورفعته، فلا تجعل اسماً معه، ولا قبله، ولا بعده.

ولذلك فإنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إجعلوها في ركوعكم»

وعندما نزل قوله تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اجعلوها في سجودكم»(١)

والله تبارك وتعالىٰ عندما أمرنا بتعظيم اسمه وتسبيحه، وتقديسه فلأنه عظيم في ذاته، ومنشأ للبركة، والخير، وهو العلامة على عالم الوجود.

قال تعالى: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾(٢)

حيث نقل الفيض في الصافي بأن البعض من المقرئين، قرأ «ذو الجلال» على قطع الصفة وجعلها صفة لاسم بمعنى أن الاسم هو ذو الجلال والإكرام، وكيف لا يكون كذلك وهو الموصل للحق تعالى.

لهذا فقد جاء في بعض الروايات:

«بسم الله الرحمن الرحيم من العبد بمنزلة كن من المولى»

فكما أنه تبارك وتعالىٰ فعال لما يريد، فإن العبد بإذنه تعالىٰ يكون فعالاً لما يريد، وذلك باسم الله الرحمن الرحيم.

ومن الأمثلة الواضحة، والشواهد الساطعة على ذلك موقف نبينا

---

(١) كنز العرفان / السيوري / كتاب الصلاة / ج ١ / ص ١٢٨.

(٢) الرحمان / ٧٨.

نوح عليه السلام عندما أراد أن يجري السفينة، وترسوا قال:

﴿بسم الله مجراها، ومرساها﴾[(١)]

فأن السفينة تحركت باسم الله، ورست باسمه.

وانما تكون البسملة بالنسبة للعبد كما وصف الحديث الشريف المتقدم، لأن العبد إذا بلغ إلىٰ مراتب الكمال فإنه لا يمكن أن يشاء شيئاً إلا إذا شاء الله تعالىٰ ذلك الشيء ولهذا هو يقول باسم الله، وهو يقصد أن هذا بإذن الله وبمشيئته.

وبناءاً على هذا فقد جاء في بعض الروايات:

«إن بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلىٰ اسم الله الأعظم من سواد العين الى بياضها»[(٢)]

ومعنى هذا الحديث العظيم أن الإنسان إذا كان يقول بسم الله الرحمن الرحيم بحق، ولأنها الحق يقولها معتمداً على الله تعالىٰ لا على قدرة خارجية، ولا على سبب ظاهري، ولا يعتمد على قدرة نفسه بل على الله تعالىٰ مطلقاً، فإنها ـ أي البسملة ـ تكون حينئذٍ أقرب إلىٰ الاسم الأعظم من سواد العين إلىٰ بياضها. ويكون الأنسان عندها في أقرب المراتب المقربة له من الله تعالى. ويكون عندها عمله نور، وفعله هو ما يشاؤه الله تبارك وتعالىٰ لا شي غيره.

فإن الأنسان إذا وصل إلىٰ هذه المرتبة يكون العمل بالنسبة إليه من الله تعالى، ولا تأثير له ذاته في شيء منه، وعندها تكون البسملة بالنسبة

---

(١) هود / ٤١.

(٢) تفسير نور الثقلين / ج ١ / ص ٨.

إليه بمنزلة كن من المولىٰ تبارك وتعالى، وتكون البسملة بالنسبة إليه أقرب من سواد العين إلىٰ بياضها.

فهذا الإسم إذا نزهه الانسان، ولم يجعله مع غيره فإنه يمكن أن يكون كأبي ذر رحمه الله حيث قال عنه الذي لا ينطق عن الهوى، انما هو وحي يوحى قال عنه:

«ما اظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر»[1]

وإنما قالها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في حق أبي ذر لأنه رحمه الله قد توكل على الله سبحانه وتعالىٰ توكلاً كاملاً، ولم ينظر إلىٰ أحد غيره مطلقاً.

فائدة طريفة:

جاء في تعبيرات بعض العلماء بأن جميع المعارف قد جمعت في سورة الحمد التي هي فاتحة الكتاب وأمه، وأن جميع المعارف التي في الفاتحة هي في بسملتها، وجميع الأسرار، قد جمعت في باء بسم الله الرحمن الرحين، وأن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: **«وأنا النقطة في الباء»**[2]

ونحن إذا لاحظنا مثل هذه التعابير فلا نتعجب فإننا إذا لم نكن نفهم بعض الأسرار فإن مصلحتنا أن نتروىٰ في تفسير مثل هذه العبارات، ولا نصفها بالباطل والسفه، والعياذ بالله، بل الذي ينبغي علينا هو أن نرجعها

---

(١) معاني الأخبار / الصدوق / ص ١٧٢.

(٢) مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار / عبدالله شبر / ح ٨٤ / ص ٤٣٥.

إلى أهلها.

وحيث أننا الآن لسنا بين يدي العرفان فالذي يناسبنا أن نقول لا نعلم كما هي مقولة بعض العظماء عندما يصل إلىٰ مثل هذه المسائل.

وقد قال بعضهم عن هذه الكلمة بأنها من قبيل من يريد أن يدخل العالم في بيضةٍ من دون أن تكبر البيضة أو يصغر العالم.

فإنه إذن من غير المتصور أن تجمع جميع الأسرار المخزونة في القرآن الكريم في نقطة الباء ونحن إذا نظرنا إلىٰ هذه الرواية ـ رواية العالم والبيضة ـ فإننا نجدها قد رويت بطريقتين.

إحداهما أجاب فيها الامام عليه السلام السائل بهذا الجواب:

«عن أبي عبد الله «ع» قال: جاء رجل الى أمير المؤمنين «ع» فقال: أيقدر الله أن يدخل الأرض في بيضة، ولا يصغّر الارض ولا يكبر البيضة؟

فقال: ويلك إن الله لا يوصف بالعجز. ومن أقدر ممن يلطف الأرض، ويعظم البيضة»[1]

فمعنى ذلك أن قدرة الله تعالىٰ لا حدود لها ولكن هذا لا يكون لأن قدرته انما تتعلق بما يصدق عليه أنه شيء وتصدق عليه الشيئية وبعد ذلك: ﴿**فإن الله على كل شيء قدير**﴾[2]

وأما ما لا يصدق عليه أنه شيء كالممتنعات مثل اجتماع النقيضين فإنها لا ذات لها أصلاً ولا تعد شيئاً، ولا تتعلق بها قدرته تبارك وتعالى.

---

(١) كتاب التوحيد / الصدوق / ص ١٣٠ ـ حديث رقم ١٠.

(٢) البقرة / ٢٠.

فهل نحن مقامنا هنا من هذا القبيل أم لا؟

ربما يمكن لنا القول بأنه من المسلم به أن كل الحقائق والأسرار الكونية توجد في القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام هم الذين يفهمون بواطن الكتاب، والإمام علي عليه السلام يقول حوادث المستقبل والماضي في القرآن الكريم، ولا يعرفها إلا هو «ع».

فنحن نسأل هل هذا القرآن الذي لايزيد عن الأربعمائة صفحة يكون مشتملاً على جميع هذه المعارف ويكون مستوعباً لها. هل هذا ممكن؟

إلا أن الباطن للباطن، والظاهر للظاهر. فكيف اذا كان الكل لا يدخل في الجزء، كيف تكون جميع الأسرار في هذا الكون مجتمعة في هذا الكتاب.

لذا فان بعض العظماء قالوا بأن هذه الكلمات لها أسرار، وبواطن، واشارات لا يمكن لنا ان نفهمها بهذه السهولة.

نعم إذا نبقى مع الظاهر فإن الأمر صحيح فقد يقال لأول وهلة بأنه مستحيل ولكن اذا تجاوزنا عن الظاهر فإنه:

﴿إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون﴾[1]

---

(١) الواقعة / ٧٧ ـ ٧٩



الدرس الثالث

قد علمنا مما سبق بأن كل شيء بدأ فيه باسم الله وتوفر فيه الحسن الفعلي والفاعلي معاً فأنه هو الذي يبقى وأن ما سواه هو الذي يفنى ذلك أنه:

﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ (١)

والمقصود من كونه هالكاً في الآية الكريمة هلاكه بالفعل وفي هذا الآن، ذلك أنه هالك لفظ مشتق بحسب التعبير الأصولي وهو اسم فاعل واستعماله فيما يأتي يحتاج إلىٰ قرينةٍ لأنه مجاز وأما استعماله في الحال فهو حقيقة، وأما استعماله في الماضي فهو راجع إلىٰ الخلاف الموجود عند علماء الأصول في المشتق.

وربما يقول قائل بأنه: لو أن كل شيء هالك لكنا نراه ونعرفه، ولكنا لا نراه ولا نبصره فليس بهالكٍ، فكيف تقول الآية الكريمة بأنه هالك.

والجواب على هذا القول هو أن هذا الهلاك لا يراه إلا الأولياء والمقربون من ساحة القدس الالهية لصفاء نفوسهم، وشفافية أرواحهم.

---

(١) القصص / ٨٨.

ويمكننا أن تمثل لذلك بمن يرمي سهماً في الظلام، فإنه لا يبصره، ولكن الذي عنده كشاف يكشف له عن مسار هذا السهم فإنه يبصره.

أو أننا نلاحظ شخصين أحدهما قد وضع على عينيه آلة التقريب «دوربين» والآخر لم يضعها فإنه والحال هذه، سوف يرىٰ صاحب الآلة نقطة بعيدة، ودقيقة لا يراها الشخص الثاني بدون هذه الآلة.

وإن أولياء الله تكون الدينا بالنسبة لهم آلة يبصرون بها، وذلك لانه:

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾(١)

فما كان لوجه الله تعالىٰ فهو باق عند الله، لأنه:

﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾(٢)

وإذا أردنا التنظير لقوله تعالى: «كل شيء هالك إلا وجهه» باية أخرىٰ فهي قوله:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾(٣)

فإن هذه الآية تضرب لنا مثالاً لمن إلتفت إلىٰ ضياع عمره وحياته، ولكن بعد ضياعهما فظاهر من هذه الآية الكريمة أن الضياع كان من أول

---

(١) الزمر / ٦٩.
(٢) البقرة / ١١٠.
(٣) النور / ٣٩.

الأمر، ولكن إنما ينكشف له هذا الضياع فيما بعد حيث لا يمكن التدارك، وليس المراد منها أن ذلك الشيء كان له نفع مؤقت ثم انتهى نفعه، وإنما هو كان من الأول هالكاً وباطلاً.

لذا: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[١]

ولأن ما ليس لله تبارك وتعالىٰ إنما يكون مما قال الله تعالىٰ عنه:

﴿وقدمنا إلىٰ ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا﴾[٢]

والقرآن العظيم حافل بالآيات المبينة لمصير الأعمال التي ليست لله تعالى، بل وليست خالصة له تبارك وتعالى.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا اصدقائكم بالمن والأذىٰ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوانٍ عليه تراب، فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[٣]

فلا يقدرون على شيء مما كسبوا أي لا يصلون إلىٰ أهدافهم ومقاصدهم وذلك لأنهم لا يهديهم الله هداية تكوينية موصلة إلى الهدف، وأما الهداية التشريعية فإنها لجميع الناس.

وكذلك يقول تعالىٰ في موضع آخر:

---

(١) البقرة / ١١٥.

(٢) الفرقان / ٢٣.

(٣) البقرة / ٢٦٤.

﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾(١)

فكل أمر صدق عليه أنه شيء فما لم يكن لله وباسمه، فإنه هالك لا محالة، إذ أن بقاءه انما هو ببركة الله، واسمه.

فهذه الآية الكريمة، العظيمة ـ أعني البسملة ـ تعلمنا أدب البدء في الأشياء باسمه تعالىٰ حتى تخلد الاشياء وتبقى وتكون حقاً وخيراً.

والخلاصة:

أنه لا يوجد شيء في العالم إلا وهو لله من جميع جهاته ووجوهه، وإلا فلا بقاء له البتة

لذا فإن الذنوب لما لم تكن وجهاً من وجوه الله وشأناً من شؤونه، فانها هالكة لا محالة وبقاء الاشياء لأنها لله ووجه له تبارك وتعالى، وإلا فان الأمر كما قال الإمام الحسين عليه السلام:

«عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً»(٢)

وأما تعليقنا على الروايات التي تجعل البسملة أقرب إلىٰ الاسم الأعظم من سواد العين الىٰ بياضها فإنها تشير إلىٰ مقام رفيع لا يحصل إلا بوصول الولي إلىٰ درجة من درجات القرب القريبة من الله تعالىٰ بحيث يكون معها هذا العبد كالمعبود تعالىٰ في أنه يقول للشيء كن فيكون.

البحث حول كلمة الله تعالى:

---

(١) الرحمن / ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) دعاء عرفة للامام الحسين / مفاتيح الجنان / ص .

وهذه الكلمة العظيمة فيها الكثير من البحوث والدراسات فمنها، ما يقال عادة بأن هذا الاسم المبارك إما أنه مشتق من ألة أي عبد أو منَّ اله ووله بمعنى تحير.

والإله الذي هو على وزن كتاب بمعنى المعبود أو يكون مألوه بمعنى متحير فيه، وذلك لأنه كل العقول متحيرة به، ولذا جاء في زيارة أمين الله: **«اللهم إن قلوب المخبتين إليك والهة»**(١)

أي متحيرة فيك لا يمكنها معرفتك حق معرفتك، وهذ التحير والوله في الحقيقة والواقع تحير ممدوح، لان التحير المذموم هو الذي يضيع معه الانسان ولا يصل إلى نتيجة البتة، وأما هذا التحير فهو الذي يجعل الانسان نشيطاً ساعياً للوصول بكل ما أوتي من قوة وقدرة إلى هدفه ومقصده، فهو كالذي يكون في جبل فيه عيون ماء، وهو يعرف الطريق إليها وقد ألم به العطش فهو عندما يصل إلى هذه العيون يتحير من أيها يشرب.

لذا فان النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يقول: **«ربي زدني فيك تحيراً»**

فإن هذا التحير إنما يكون بعد الوصول فانه «ص» متحير بأي اسم يدعو ومن أي فيض ينهل.

وهذا الاسم قد اشتق إما من العبودية أو التحير، وبالتدريج صار علماً بالغلبة على هذه الذات العظيمة المستجمعة لجميع الكمالات، لا

---

(١) زيارة أمين الله / مفاتيح الجنان / ص ٣٥٠

من حيث المفهوم بل من حيث أن هذه الذات هي المستجمعة وأطلق هذا الاسم عليها فقيل عنه أنه مستجمع لجميع صفات الكمال والجمال والجلال.

وهذا الاسم أيضاً لا يكون الا موصوفاً فقط، ولا يكون صفة وأما بقية الأسماء فهي اسماء تكون صفات كالرحمن والرحيم والخالق وغيره، وأما لفظ الجلالة فلا يكون إلا موصوفاً فنقول الله الرحمن الرحيم الخالق المصور ... الخ. فهو يوصف بجميع الصفات.

البحث في كلمة الرحمن:

هي صيغة مبالغة لصفةٍ عامة، إذ أنه تبارك وتعالىٰ له رحمة مطلقة، وهذه لا مقابل لها كما أنه له رحمة خاصة لها مقابل، وهو الغضب.

فالرحمة المطلقة هي ما نلاحظه في قوله تعالى:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾[١]

وكذلك نلاحظها في بعض الأدعية:

«يامن سبقت رحمته غضبه»[٢]

«برحمتك التي وسعت كل شيء»[٣]

فهذه الرحمة لا مقابل لها إلا العدم، بل حتى جهنم قد وصفها تبارك وتعالىٰ بالرحمة قال تعالى:

---

(١) الاعراف / ١٥٦.

(٢) دعاء الجوشن الكبير / مفاتيح الجنان.

(٣) دعاء كميل / مفاتيح الجنان .

﴿يرسل عليكما شواظٌ من نارٍ ونحاس فلا تنتصران، فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١]

فوصف تعالىٰ النار بأنها نعمة قائلاً، فبأي آلاء ربكما تكذبان، كما أن الجنة نعمة وذلك لأنه لابد من النار إذ بها وبالخوف منها يصل الكثير من المؤمنين إلىٰ الجنة، فالنار إذن رحمة للمذنبين، وللذين يخافون من العذاب فبخوفهم منها يدخلون الجنة.

فهذه هي الرحمة المطلقة التي هي الرحـمة الرحمـانية التـي لا مقابل لها، وهي التي تشمل المؤمن والكافر، والدنيا والآخرة، وما شابه.

البحث في كلمة الرحيم:

الرحمة الرحيمية عبارة عن صفة مشبهة لا صيغة مبالغةٍ فهي إذن رحمة خاصة وهي التي لها مقابل، وفي وصف هذه الرحمة يقول الله تعالى:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾[٢]

فهذه الآية الكريمة تقسم الرحمة إلىٰ قسمين: خاصة وهي مـن قبيل المعارف الربانية، والجنة في الآخرة وغير ذلك فهذه الرحمة لا تكون إلا للمتقين فقط إذ أنه تبارك وتعالى، لا يئتمن على دينه إلا اللائقين به لا كل أحد.

وفي ذلك يقول تعالى:

---

(١) الرحمن / ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) الأعراف / ١٥٦.

﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾[1]

فالدين أمر لا يعطى لكل أحد وأنما يعطي لأناس مؤهلين، وإن كانت بقية الاشياء الكونية والطبيعية مباحة للجميع، وهذه هي بعض المصاديق للرحمة الرحيمية.

القسم الثاني هو رحمة عامة وهي التي قال عنها تبارك وتعالى ورحمتي وسعت كل شيء فهذه عامة ولكنه سيكتبها للذين يتقون أي يوم القيامة لما ينالونه من الجنة والثواب والنعيم.



(١) التوبة / ٤٦.

الدرس الرابع

قلنا فيما سبق أن الرحمن هي رحمة الله الواسعة، والرحيم هي رحمته الخاصة وتشير إلى هذا التقسيم الآية الكريمة من سورة الأعراف:

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة، وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء، ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[1]

ففي الآية الكريمة مجموعة مطالب:

١ ـ أن الله تعالى يصيب بعذابه من يشاء، وذلك بحسب حكمته.

٢ ـ أن رحمته تعالى واسعة لكل ما يصدق عليه أنه شيء وهذه هي الرحمة المطلقة.

٣ ـ أن رحمة الله تبارك وتعالى واسعة، ولكنه تعالى كتبها للأفراد المتقين، وهذه هي الرحمة الخاصة.

٤ ـ أن هذه الرحمة الخاصة لا تشمل غير المتقين.

فالرحمة الواسعة المطلقة لا مقابل لها كما ظهر من الآية، وأما

---

(١) الاعراف / ١٥٦.

الرحمة الخاصة فمقابلها العذاب كما يظهر من الآية الكريمة:

﴿لا يرضى لعباده الكفر﴾(١)

وكذا جاء في آية أخرى:

﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾(٢)

وقوله تعالىٰ «وإليه تقلبون»، لطيف جداً بل هو ألطف من إنا لله وإنا إليه راجعون، لأنه يمثل مقاماً أرقى من مقام إنا لله لأن المنظور فيه هو الله تعالىٰ أولاً ولذلك قدمه بقوله وإليه ترجعون.

والرحمن قد يأتي تارة علماً وأخرىٰ وصفاً وهو عند الإطلاق يشمل مساحة واسعة لأهل الجنة ولأهل النار وغيرهم.

فقد جاء في سورة يس:

﴿أتخذ من دونه آلهةً إن يردن الرحمن بضرٍ لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾(٣)

وتعبير الآية إن يردن الرحمن بضرٍ دال على أن هذه الرحمة هي المطلقة لا الخاصة لأن الخاصة لا تجتمع مع الضر لانها هي المقابلة للعذاب.

ولو أريد بالرحمن ذو الرحمة الخاصة لما كان مناسباً في المقام ولكان الأنسب أن يقال إن يردن القهار بضرٍ أو المنتقم بضر.

وكذلك جاء في سورة الرحمن التي احتوت الرحمة في كل آياتها

---

(١) الزمر / ٧.

(٢) العنكبوت / ٢١.

(٣) يس / ٢٣.

قوله تعالى:

﴿يرسل عليكما شواظٌ من نار ونحاس فلا تنتصران، فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١]

ويقول تعالىٰ في موضع آخر من نفس السورة:

﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، يطوفون بينها وبين حميم آنٍ، فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[٢]

وذلك لأن الوجود وخير من العدم فالوجود وكمالاته عبارة عن رحمة من فيض رحماته تعالىٰ ويقول تعالىٰ في موضع آخر من سورة الأنعام:

﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾[٣]

وأما في بيان الرحمة الخاصة التي يقابلها العذاب فقد جاء في قوله تعالىٰ في سورة الأعراف:

﴿ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾[٤]

فواضح من تخصيص المحسنين بهذه الرحمة أنها الخاصة، وأما الرحمة المطلقة فهي لهم ولغيرهم والمحسنون هم اصحاب الإحسان

---

(١) الرحمن / ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) الرحمن / ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥.

(٣) الانعام / ١٤٧.

(٤) الأعراف / ٥٦.

وأما الإحسان فإنه مقام راقٍ من مقامات القرب، والذي جاء في بعض المأثورات بيانه بما يلي:

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١)

فإذا ارتقى الانسان إلىٰ درجات عالية فإن التشبيه لا يكون صحيحاً في حقه فلا يقال عنه كأنه يرىٰ الله بل يقال: إنَّه يرىٰ الله بأن لا يراه.

وهذا مقام الأمير عليه السلام ومقام أهل البيت عليهم السلام إذ يقول عليه السلام: «ما كنت أعبد رباً لم أره»(٢)

ويقول في كلمة أخرى: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه».

فقال عليه السلام أراه، ولم يقل كأني أراه، وهذا مقام من مقامات الأولياء وإن لم يكونوا أئمة أو أنبياء كما وصلت زينت عليها السلام إلى هذه المقامات.

فمرتبة أن تراه فوق مرتبة كأنك تراه.

ثم أن الرحمة من حيث المعنى عبارة عن رقة القلب، ولكنها في الله تعالىٰ صفة كمالٍ لا نقص فيها فليست عبارة عن رقة قلب أو تأثر أو انفعال نفساني، وأنما هي لطف الهي من الطافه تعالىٰ بعباده.

وأما الرحمة الانسانية الناشئة عن رقة القلب أو التأثر النفساني فهي صفة نقص، إذ أن الرحمة الانسانية التي تمثل صفة كمال هي الرحمة الناشئة عن التأثر بوجه الله وطلب القرب منه.

---

(١) بحار الانوار /ج ٦٥ ص ١١٦ الباب الأول.

(٢) الكافي /كتاب التوحيد باب أبطال الرؤية /ج ١ / ص ٩٨.

فالانسان الذي تمثل الرحمة فيه كمالاً هو الانسان الذي يقول:

«انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً»(١)

لا أنه يقول: إنما نطعمكم لأجل تاثر قلوبنا وعطفنا على حالكم البائسة.

ولذلك قال تعالىٰ عن رسوله الاكرم «ص»:

«فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك»(٢)

فالرحمة الكمالية هي الناشئ عن التأثر بالله لا بأحد سواه.



(١) الانسان / ٩.

(٢) آل عمران / ١٥٩.



الدرس الخامس

انتهينا من شرح البسملة في الدروس المتقدمة، ونشرع الآن في شرح الآية الثانية من هذه السورة المباركة وهي قوله تعالى:

﴿الحمد لله رب العالمين﴾

أي الحمد لله مدبر العالمين، والحمد والمدح والثناء والشكر، هذه وإن كانت قريبة المعاني من بعضها البعض إلا أن بينها تفاوتاً دقيقاً ولطيفاً كما يوجد فرق في اللغة الفارسية بين كلمة «سباس ، ستايس»، ومع وجود هذه الفروق الدقيقة إلا أنها تستخدم أحيانا على نحو الترادف.

فأما الحمد فهو الثناء على الجميل الذي هو النعمة التي انعمها الحكيم وخلقها سواءأكان الحامد منعماً عليه بها أم لا ولذا فإن الله تعالى محمود من قبل جميع المخلوقات، وعلى كل النعم الواصلة منها إليهم أو غير الواصلة.

فيجب علينا أن نحمده على ما أنعم به على خلقه في ماضي الزمان وكذلك في مستقبله فكل نعمة هو منشؤها تبارك وتعالى يجب

حمده عليها.

وذلك لأن الحمد انما يكون على الجميل، والقرآن قد بين لنا بأن كل شيء مخلوق له تعالىٰ وأنه جميل، فقد جاء في سورة الرعد:

﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾[١]

فإذن كل ما يصدق عليه أنه شيء فهو مخلوق لله تعالى، وأيضاً قد جاء في سورة السجدة قوله تعالى:

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الانسان من طين﴾[٢]

وبضم هاتين الآيتين لبعضهما يمكن تشكيل القياس الآتي:

كل شيء فهو مخلوق لله تعالىٰ **الصغرىٰ** «مطابقة لسورة الرعد»

وكل مخلوق لله تعالىٰ فهو حسن **الكبرىٰ** «مطابقة لسورة السجدة»

فكل شيء حسن **النتيجة**

فإذا كان كذلك وكان **«كل جمالك جميل»**[٣]

أي أن جمال عمل الله تبارك وتعالىٰ جمال مطلق لا يختص بحالة دون أخرىٰ أو بشيء دون آخر وكان الحمد ـ كما عرفناه ـ في مقابل الجميل فكل شيء في عالم الوجود لله تعالىٰ وهو جميل فالحمد لله.

ومما تقدم علم أن اللام لابد أن تكون للإستغراق فالله هو المحمود المحض، وكل شيء ملكه فلابد من حمده ولا يحق لأحد أن يحمد سواه، ومن فعل فإنه يحكم على نفسه بالضياع والدمار والتيه وأما

---

(١) الرعد / ١٦.

(٢) السجدة / ٧.

(٣) دعاء السحر، مفاتيح الجنان.

قولهم «ع»: «من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق»(١)

فليس معناه أنه يجب شكر زيد وعمرو من المخلوقين، بهذا الشكر يتم شكره تبارك وتعالىٰ وإنما المقصود بهذا الحديث أنكم أيها الناس اشكروا الله تعالىٰ عن طريق هذا المخلوق الذي هو فيض من فيوضات الله تعالى، وصلوا الله عن طريق مخلوقاته التي هي آية من آيانه فإنني أوصلت النعم إليه فلا تشكروه ولكن اشكروا الله.

لأن معنى الحمد لله أن جميع المحامد له تعالىٰ لا لأحد سواه، وقوله «ع» دعاء السحر **«وكل جمالك جميل»**(٢)

معناه أن كل أعمالك يا الهي بلا استثناء جملية لا أن الجميل منها فقط هو الجميل كما في أعمال الناس العاديين، أو أن الجميل منها نسبي قد يكون جميلاً عند زيد، وليس كذلك عند عمرو، بل هي كلها جملية، بقول مطلق.

فكل جمالك جميل أي مطلق وكل كمالك كامل أي مطلق لا أنه جمال، أو كمال نسبي فكل مكان فيه جمال يا الهي فهو علامتك، وكل مكان فيه كمال فهو آيتك، وحيث أن الحمد في مقابل الكمال والجمال فإن الحمد كله لك ولا احد يملك الحمد سواك.

لأن كل فيض هو من فيوضاتك يارب العالمين فأنت علة العلل وانت الفاعل الحقيقي لكل شيء ولا دخل للعلل المتوسطة في الفعل فأنت أول الفيض وأنت أخره، وأنت ظاهره وباطنة، لذا يقول تعالى:

---

(١) الوسائل / ج ١١ / ص ٥٤٢ / حديث رقم ٢١٦٣٦.

(٢) دعاء السحر: مفاتيح الجنان.

﴿فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾(١)

ففي هذه الآية الكريمة يقول تعالى، فلم تقتلوهم أصلاً، ولم يقل فلم تقتلوهم اذ قتلتموهم لانه هوالفاعل الحقيقي ولكن قال لرسوله وما رميت ـ إذ رميت ـ احتراماً له «ص» ورفعة لمقامه.

ففيض الله تعالىٰ وفيض فعله قد تجلى عبر أيـدي المسـلمين، وليس المسلمون هم الذين قتلوا الكافرين، ولذلك يقول تعالىٰ بعد أن انتهت المعركة:

﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾(٢)

فنراه تعالىٰ قد حمد نفسه، ولم يقل لهم يا أيها المسلمون بورك فيكم انتصاركم لأنهم لم يفعلوا شيئاً، وانما كل شيء جميل مطلقاً فهو له تعالىٰ لذا حق له أن يحمد نفسه عند الانتصار.

والله تعالىٰ عندما يشكر نفسه لأنه:

﴿وما بكم من نعمةٍ فمن الله﴾(٣)

ولانه وحده لا شريك له:

﴿له الحمد في الاولىٰ والآخرة﴾(٤)

ونحن عندما نقول بأن الله تبارك وتعالىٰ مالك كل شيء وما بنا من

---

(١) الانفال / ١٧.

(٢) الانعام / ٤٥.

(٣) النحل / ٥٣.

(٤) القصص / ٧٠.

نعمةٍ فمنه تعالىٰ لا من سواه، فإذن لماذا يتفضل علينا بالآجر؟ ولماذا يشتري من عندنا الانفس والأموال ويبيعنا الجنة؟ لماذا؟

فالجواب أنه تعالى: انما يفعل هذا الاحسان من أجل أن يشوقنا ويحفزنا ليس إلا وذلك لمصلحتنا وكمالنا وإلا:

﴿أمن يملك السمع والأبصار﴾[١]

فالانسان ماذا يملك حتى يبيعه على الله تعالى على مالك السموات والارض، لذا فان قوله تعالى:

﴿إن الله اشترىٰ من المؤمنين انفسهم﴾[٢]

ليس إلا للتشويق، ومثل ذلك مثل ما يقوله الأب لابنه عندما يريد تعليمه على خير وحق يقول له افعل كذا ولك كذا.

وإلا فكل شيء من الله وبفعله تعالىٰ إذ يستدل تعالى:

﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾[٣]

فلا تشكروا أحداً سوىٰ الله، وإن الشكر والحمد له تعالىٰ توفيق عظيم فلابد من الشكر على هذا التوفيق.

---

(١) يونس / ٣١.

(٢) التوبة / ١١١.

(٣) التوبة / ١٤.



الدرس السادس

لا يزال البحث في الحمد الذي كان سببه إفاضة النعمة والكمال على الحامد من المحمود، ومفيض الكمال لا شك يكون كاملاً بالذات ومفيض النعم لا شك يكون منعماً بالذات فالله تعالىٰ لأنه منعم بالذات، وكامل بالذات فهو المحمود حسب لا محمود سواه، وذلك لأنه تعالىٰ يقول:

﴿فله الأسماء الحسنى﴾[1]

ويقول:

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[2]

وعليه فلا يعقل أن يكون هناك أحد سواه محموداً إذ لا كمال ذاتي في غيره، ولا إنعام ذاتي إلا منه، فهو المحمود، وكل ما سواه حامد، فلا يكون تعالىٰ حامداً لأحد سوىٰ نفسه.

ولكنه مع ذلك فقد نسب إلىٰ نفسه الشكر في أكثر من مورد، وأكثر

---

(١) الاسراء / ١١٠.

(٢) النحل / ٥٣.

من آية، فقد قال تعالى:

﴿فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً، فإن الله شاكر عليم﴾[(١)]

ويقول تعالىٰ في سورة التغابن:

﴿والله شكور حليم﴾[(٢)]

وكذا ورد في سورة الاسراء:

﴿ومن أراد الآخرة، وسعى لها سعيها، وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾[(٣)]

وجاء في قوله تعالى:

﴿إن هذا كان لكم جزاءً، وكان سعيكم مشكوراً﴾[(٤)]

فهذه الموارد جميعاً تتحدث عن شكر الله تعالىٰ لسعي المؤمنين، وعملهم، وهذا الشكر إنما هو صفة فعل بمعنى إدخالهم الجنة، وتنعيمهم فيها، فهو على ذلك نعمة من النعم الإلهية على العبد فتحتاج إلىٰ حمد من الله تعالىٰ لذلك فإنه تعالىٰ جعل دعاء المؤمنين في الجنة حمده فقال:

﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾[(٥)]

وكذلك قال في مورد آخر:

---

(١) البقرة / ١٥٨.

(٢) التغابن / ١٧.

(٣) الاسراء / ١٩.

(٤) الانسان / ٢٢.

(٥) يونس / ١٠.

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل، تجري من تحتهم الأنهار، وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ (١)

وقال تعالى:

﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ (٢)

وقال:

﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور﴾ (٣)

فالحمد إذن له تعالىٰ فقط لا لأحد سواه أصلاً، وأما قوله تعالى في سورة الاسراء:

﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلىٰ غسق الليل، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا﴾ (٤)

فإن الحمد في الآية ليس منه تعالى، بل من الحامدين بمعنى أنهم يحمدون الله تعالىٰ على أنه بعث النبي «ص» وأوصله إلىٰ أرفع المقامات، وأعلاها، وهو مقام الشفاعة الكبرىٰ فالمقام محمود بلحاظ فاعله وهو الله تعالى، وإلا فمن غير المعقول أن يحمد شيء سواه أو يحمد أحد سواه بل:

﴿إن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (٥)

---

(١) الاعراف / ٤٣.

(٢) الزمر / ٧٤.

(٣) فاطر / ٣٤.

(٤) الاسراء / ٧٨، ٧٩.

(٥) الاسراء / ٤٤.

آثار الحمد:

يقول تعالىٰ في ذلك:

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عند ابي لشديد﴾[١]

والشكر في الآية الكريمة بمعنى الحمد، فإن العبد كلما حمد الله تعالىٰ فإنه يزداد رفعة ويعلو مقاماً حتى يصل إلىٰ مقام سمعه الذي يسمع به ويبصره الذي يبصر به، بالإضافة إلىٰ باقي النعم الأُخرىٰ واذا ترك الحمد فإنه يكون من المعذبين.

وقد أشار الإمام زين العابدين «ع» إلىٰ أثار الحمد في دعائه في الصحيفة السجادية المباركة حيث قال:

«والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتابعة، وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرفوا في مننه، فلم يحمدوه وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الانسانية إلىٰ حد البهيمية، فكانوا كما وصف في محكم كتابه إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً»[٢]

وهنا نكتة لطيفة وهى أنه عليه السلام قال حدود الانساية لان فيها مقامات كمالية متفاوته، وأما البهيمية فإن فيها حداً واحداً فقط لا غير، وهو عدم العقل.

وهذه الفقرة من الدعاء تشير إلىٰ الآثار السلبية لترك الحمد وأما

---

(١) ابراهيم / ٧.

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء الاول.

الآثار الايجابية لفعل الحمد فهي كما يقول عليه السلام:

«والحمد لله على ما عرفنا من نفسه. والهمنا من شكره. وفتح لنا من ابواب العلم بربوبينه، ودلنا عليه من الاخلاص له في توحيده، وجنبنا من الإلحاد والشك في أمره، حمداً نعمر به فيمن حمده من خلقه، ونسبق به من سبق إلى رضاه وعفوه، حمداً يضيء لنا به ظلمات البرزخ، ويسهل علينا به سبيل المبعث، ويشرف به منازلنا عند مواقف الاشهاد يوم تجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون»(١)

ثم يقول عليه السلام:

«حمداً يرتفع منا إلى أعلى عليين في كتاب مرقوم يشهده المقربون، حمداً تقر به عيوننا اذا برقت الابصار، وتبيض وجوهنا إذا اسودت الابشار، حمداً نعتق به من آليم نار الله إلى كريم جوار الله ... »(٢)

فهذه هي آثار الحمد ومعطياته، وهذا الدعاء العظيم من أوله إلى آخره حول أهمية الحمد لله، وكيفيته، وبيان متعلقاته، فليراجع بأكمله.

والآية الكريمة، الحمد لله رب العالمين، تشير إلى علة الحمد، فله الحمد لأنه الله اي الذات المستجمعة لجميع صفات الكمال، والجمال، وله الحمد لأنه رب العالمين، ذلك أن تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية. وله الحمد لأنه رحمان، وله الحمد لأنه رحيم.

وهي في مقام اثبات التوحيد الربوبي الذي هو محل انكار المشركين، لأنهم لا ينكرون خالقيته سبحانه، فهم يجيبون عندما يسئلون عن الخالق، بأنه الله تعالى:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

﴿لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[١]

ولكنهم مع ذلك يعبدون أرباباً متفرقة، وآلهة متعددة مدعين أنها هي الوسائط بينهم، وبين الله تعالى:

﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله زلفى﴾[٢]

لذلك فإن الآية الكريمة أثبتت له تعالى الربوبية بأوسع معانيها إذ جمعت كلمة العالمين مع تحليتها باللام التي تفيد الحسن.

ولقد كان سعي الانبياء وجهدهم منصباً في هذا المجال وهو مجال التوحيد الربوبي مجال عبادة الله وحده دون اشراك غيره معه في العبادة، وهو الأمر الذي اكد عليه القرآن الكريم، وحاول إثباته عن طريقين:

الأول: طريق التحليل.

الثاني: طريق التلازم.

أما طريقة التحليل فهي تعني أن العلة إذا كان لها معلول فإنه إذا كان مشتملاً على كمالات ومواصفات ممتازة وعالية، فإن هذه الكمالات موجودة بنحو أعلى وأشرف في العلة الموجودة له فإن كان الله سبحانه وتعالىٰ هو الخالق لجميع الاشياء فإنه لاشك أن يكون هو المعطي لها كمالاتها التي من ضمنها التدبير والربوبية، فهما فيه تعالى أكمل وأشرف من غيره فهو الرب لا رب سواه، وهو المدبر لا مدبر غيره.

وأما طريقة التلازم فهي من خلال وجود التلازم بين الخالقية

---

(١) لقمان / ٢٥.

(٢) الزمر / ٣.

والربوبية، وذلك أن خالق الشيء لابد أن يكون محيطاً بشؤونه، وأحواله، وأسراره، وكل ما يرتبط به من قريب أو بعيد، وما يصلحه، وما يفسده، وغير ذلك من أموره ومتعلقاته.

ومن هنا فإنه من كان خالقاً، فهو عالم بشئون مخلوقاته، ومن كان كذلك فهو مدبر لها فهو ربها لا رب سواه لها.

لذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[1]

وعليه فإن من لم يكن محيطاً، وعالماً بكل شئون المخلوق، فليس بخالق له، واذا لم يكن خالقاً له، فلا يقدر على تدبير شئونه، فلا يكون رباً له، فانحصر الرب في الخالق وهو الله تبارك وتعالى.

الرحمن الرحيم:

فاذا ثبت أنه تعالىٰ محمود لأنه الله تعالى، ولأنه رب العالمين، فهو محمود كذلك لأنه الرحمن الرحيم، فإن هذه الربوبية ربوبية محمودة لما فيها من صفات الجمال وهي الرحمة الرحيمية والرحمة الرحمانية، فهو تعالىٰ مدبر للعالم برحمته المطلقة، وقد تقدم البحث في الرحمن وفي الرحيم في شرح البسملة، فلتراجع.

فتحصل أن الرب هو الله وهو الذات المستجمعة لجميع الكمالات، ومطلقها، وأنه هو المالك والمدبر لكل العوالم، وأن ربوبيته محمودة لما فيها من الرحمة.

---

(١) طه / ٥٠.



الدرس السابع

لما كان القرآن الكريم هو الكتاب النازل على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لأجل هداية الانسان وايصاله إلىٰ كماله، فلابد له أن يطرح مسألة الثواب والعقاب، والجزاء في يوم المعاد واليوم الآخر، لأنه من العوامل المهمة التي تحقق موضوع الهداية، إذ لولاها لكان الكثير من الخلق رغم اعتقادهم بالله وخالقيته، ورازقيته يتركون مسئولياتهم، وتكاليفهم التي أرادها الله منهم.

ولكن إذا إسست مسألة الحساب واعتقد بها الانسان، فإنه لا محالة يحاول أن يتزكى لينال أقرب المراتب من الله ورسوله في ذلك اليوم.

وحيث كان الاعتقاد بيوم القيامة عاملاً مهماً لهداية الانسان ووصوله إلىٰ هدفه الاسمى، وإخراجه من الظلمات إلىٰ النور، فيجب أن يحمد الانسان ربه عليه، فلذا قد علمنا الله تعالىٰ في هذه السورة المباركة أن نحمده لأنه مالك يوم الدين، فكأن هذا دليل خامس على لزوم حمده تعالى، فقد قلنا بأنه محمود لأنه الله. ومحمود لأنه رب العالمين، ولانه رحمان، ولانه رحيم، ونقول هنا هو محمود لأنه مالك اليوم الدين.

لذلك فإن من ضمن الأسباب التي توقع الانسان في العذاب الشديد هو نسيانه ليوم الدين والحساب.

قال تعالى:

﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾(١)

مالك يوم الدين

في الآية قرائتان: مالك ، ومَلِك، والأولىٰ أكثر من الثانية.

أما الملك بكسر الميم، فتارة يكون اعتبارياً كملك زيد للثوب أو الدار أو الدابة وهذا هو الملك المتعارف بين الناس لتيسر معاملاتهم وتسهيلها في البيع والشراء وغيرها ووجه اعتباريته أنه ممكن التحول مما تملكه الآن سيملكه غيرك غداً وبالعكس.

وأخرىٰ يكون الملك حقيقياً كملك الانسان لبصره وسمعه، وجوارحه، وهو وإن كان ملكاً حقيقياً إلا أنه ملك محدود بحدودة الخاصة. وهو على خلاف الملك المتقدم.

وثالثة يكون الملك عبارة عن ملك العلة لمعلولها، وهذا الملك ملك حقيقي غير محدود، وهو ملك الله تبارك وتعالىٰ لمخلوقاته، حيث أنه علة العلل لجميع المخلوقات والموجودات بلا استثناء، وذلك لأنه تعالىٰ مطلق فملكه مطلق، وأما الانسان فلما كان محدوداً فإنه محدود أيضاً.

---

(١) ص / ٢٦.

بحث لغوي:

الملك بكسر اللام مأخوذ من الملك بضم الميم وسكون اللام، والمالك من الملك بكسر الميم وسكون اللام.

وقد قيل في ترجيح الملك على المالك في الآية أن الملك هي التي تضاف للزمان، ولا تضاف مالك الىٰ الزمان، فيقال ملك الدهر الأول، أو ملك الزمان ولا يقال مالك العصر أو مالك الزمان.

ويمكن أن يناقش هذا الوجه بأن:

لا فرق في المقام بين الملك والمالك لأنه تعالىٰ مالك كل شيء وملكه فلا فرق في التعبير بالنسبة إليه تبارك وتعالى. فلا معنى لترجيح احداهما على الأخرى.

وهذا الوجه وإن كان في نفسه مقبولاً من حيث أن جميع الموجودات لله تعالىٰ وهو مالكها إلا أن البحث في الجهة الاستعمالية للفظ، فلا شك أن هناك مرجحاً في مقام الاستعمال بشكل عام لاحداهما على الأخرى.

بيان ذلك:

إنه إذا أضيف المَلِك بكسر اللام إلىٰ الزمان فان المعنى هو أن ذلك الزمان ظرف لمالكية ذلك الملك فقوله تعالىٰ مالك يوم الدين معناه أن يوم الدين ظرف ظهور هذه المالكية لا أن معنى الآيه الكريمة أن ذلك اليوم مملوك له تعالى، لأن هذا أمر مفروغ منه إذ لا يمكن أن يتصور شيء من زمان أو مكان أو عالم إلا وهو مملوك له تعالىٰ لأنه علته فاذا

لوحظ هذا المعنى وهو أن سلطانه تعالىٰ ينفذ تمام النفوذ، ويتحقق منتهى التحقق في ذلك اليوم وهو يوم الدين فإن الانسب بالتعبير هو الملك بكسر اللام.

ولكن إذا لوحظت جهة الأعمية المدلول عليها بلفظة المالك التي تجمع الملك معها فإنها حينئذٍ تكون أنسب في المقام لأنه تعالىٰ مالك لأعيان الاشياء وسلطان عليها، ومن هذه الجهة، فإنه باعتباره المالك أولاً وبالذات فإنه يُخوِّل غيره في الملك.

قال تعالى: ﴿**قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء**﴾(١)

وقال تعالى: ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير**﴾(٢)

وقال تعالى: ﴿**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾(٣)

وقال تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض، ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾(٤)

فالواضح من هذه الآيات ومن غيرها أنه تعالىٰ هو المالك والملك لكل شيء وفي كل شيء، فله الملك والملكوت أي في عالم الظهور، وعالم البطون.

---

(١) آل عمران / ٢٦.

(٢) الملك / ١.

(٣) يس / ٨٣.

(٤) البقرة / ١٠٧.

وأما تعبيره في الآية ـ محل البحث ـ بأنه مالك يوم الدين وكذلك الآيات التي تتحد معها في المعنى كقوله تعالى:

﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، والأمر يومئذٍ لله﴾(١)

وكقوله تعالى:

﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار﴾(٢)

فإنه تبين بأن ظهور ملكه تعالىٰ بالنسبة للجاهلين بمالكيته وملكيته المطلقين في ذلك اليوم، وإلا فهو المالك والملك المطلق بلا منازع بحسب ما قررته الآيات المتقدمة.

وهناك مجموعة من الآيات تقرر انحصار الملك فيه تعالىٰ من خلال نفيه عن غيره.

كقوله تعالى:

﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾(٣)

﴿وقل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ماشاء الله﴾(٤)

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله﴾(٥)

فهذه الآيات الكريمة تشير الىٰ نفي الملك عن غيره مطلقاً بل تنفي

---

(١) الانفطار / ١٨ ـ ١٩.

(٢) غافر / ١٦.

(٣)الاسراء / ١١١.

(٤) يونس / ٤٩.

(٥) الاعراف / ١٨٨.

حتى الشريك معه في الملك فضلاً عن الاستقلال فيه.

وأما قول موسى (ع) في قوله تعالى: **﴿قال رب إني لا أملك الا نفسي وأخي﴾**(١) فإنه ناظر إلىٰ الجهة التشريعية لا إلىٰ الجهة التكوينية بمعنى أن موسى (ع) وأخاه هارون متمكنان من انفسهما في مقام إذعانهما على الايمان بالله تعالىٰ وإطاعة أوامره، والانتهاء عن نواهيه، وأما بالنسبة إلىٰ غيرهما فغير متمكنين من ذلك. لأن هذه المسألة قد جعل الله الاختيار فيها للانسان فقال تعالى: **﴿انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾**(٢)

وليست الآية ناظرة إلىٰ مقام التكوين فإن المالكية تكويناً لله وحده لا لأحد سواه فلا منافاة أصلاً من حيث المضمون بين هذه الآية والآيات المتقدمة.

ثم أن تبارك وتعالى، قد قسم الملك من جهة تصويرية إلىٰ أقسام أربعة، فقال:

﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ومالهم فيهما من شرك، وماله منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾(٣)

فالآية الكريمة صورت أربعة انحاء من الملك.

---

(١) المائدة / ٢٥.

(٢) الانسان / ٣.

(٣) سبأ / ٢٢ ـ ٢٣.

الأول: الملك بالاستقلال، وهذا نفته عن كل من سوىٰ الله مهما كان متعلقله فقالت: ﴿**لا يملكون مثال ذرة في السموات ولا في الأرض**﴾

الثاني: الملك على نحو مع الله تعالى، فقالت الآية في نفيه وبطلانه. ﴿**وما لهم فيهما من شرك**﴾

الثالث: استعانة الله في ملكه بمعين وظهير منهم، وهذا أيضاً نفته الآية الكريمة. ﴿**وماله منهم من ظهير**﴾

الرابع: وجود الشفيع المأذون من قبل الله تعالى، وهذا فقط تبينه الآيه الكريمة، فإن الأنبياء والأولياء، والملائكة يملكون حق الشفاعة، ولكن بتمليك الله لهم إياه وبإذنه لهم في ذلك قال تعالى:

﴿**ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن ارتضى**﴾

فتحصل أنه تعالىٰ المالك والملك على الاطلاق في الدنيا والآخرة لا مالك ولا ملك غيره وأما إشارته تعالىٰ إلىٰ أنه مالك يوم الدين فلأجل ظهوره ظهوراً جلياً ومطلقاً في ذلك اليوم للموحدين، ولغيرهم.

البحث في اليوم:

كلمة يوم في القرآن الكريم في أغلب مواردهاواستعمالاتها بمعنى يوم القيامة، فاحياناً تضاف الىٰ الدين أو الآخر، أو يومئذ، وأحياناً إلىٰ غيرها، وثالثة لا تضاف أصلاً. وإذا قصد بها يوم الدين فإنها حينئذٍ لا تثنى ولا تجمع.

قال تعالى: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾(١)

وقال تعالى: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾(٢)

وقال تعالى: ﴿والارض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾(٣)

وقال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الارض، والسماوات﴾(٤)

وقال تعالى: ﴿ونفخ فى الصور فصعق من في السموات، ومن في الأرض﴾(٥)

فهذه الأيات يراد من اليوم فيها يوم القيامه أو يوم الدين والحساب، وأما قوله تعالى: ﴿الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾(٦)

وقوله تعالى: ﴿خلق الأرض في يومين﴾(٧)

فبقرينة الجمع في الآية الأولى، والتثنية في الثانية فإن المقصود ليس هو اليوم الآخر. وإنما المقصود مدة خلق السموات والأرض.

وأما قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾(٨) فليس المقصود من اليوم هنا هو اليوم الآخر، وانما المقصود من اليوم هو الظرف الذي يظهر فيه فعله، وشأنه تعالى وإلا فهو محيط باليوم والزمان والمكان فهو في

---

(١) المعارج / ٤.

(٢) الانبياء / ١٠٤.

(٣) الزمر / ٦٧.

(٤) ابراهيم / ٤٨.

(٥) الزمر / ٦٨.

(٦) الاعراف / ٥٤.

(٧) فصلت / ٩ .

(٨) الرحمن / ٦٩.

كل زمان وليس في زمان وفي كل مكان وليس في مكان.

ويوم الدين معناه يوم الجزاء لأنه في ذلك اليوم يظهر جزاء الأعمال، ويثاب المرء على صالحها، ويعاقب على طالحها.

فإن هذا اليوم هو الذي يصفه تعالىٰ بأنه: ﴿**يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون**﴾[(١)]

ويقول عنه كذلك: ﴿**وتقطعت بهم الاسباب**﴾[(٢)]

﴿**فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم**﴾[(٣)]

فتحصل أنه تعالىٰ وإن كان مالكاً، وملكاً على الاطلاق إلا أنه تبارك وتعالىٰ يظهر ملكة تمام الظهور ويتجلى كل التجلي، فلا ينكر أحد في ذلك اليوم ملكة فلا مجال لأن يدعي فرعون ما ادعى في قوله تعالى:

﴿**ونادىٰ فرعون في قومه، قال ياقوم أليس لي ملك مصر، وهذه الانهار تجري من تحتي**﴾[(٤)]

كما أنه لا مجال لقول غيره: ﴿**أنا أحي، وأميت**﴾[(٥)]، ولا غيرهما وإضافة اسم الفاعل أعني مالك في الآية الكريمة إضافة حقيقية دالة على الاستمرار يستكشف فيها ملكه تعالىٰ لكل شيء على نحو الاستمرار، فهذا كاشف عن أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان فعلاً بل إن يوم الدين موجود فعلاً والقيامة كذلك، لأن الآخرة كما تصرح

---

(١) النور / ٢٤.

(٢) البقرة / ١٦٦.

(٣) المؤمنون / ١٠١.

(٤) الزخرف / ٥١.

(٥) البقرة / ٢٥٨.

الآيات ليست شيئاً سوىٰ باطن الحياة الدنيا كقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الاخرة هم غافلون﴾[1]



---

(١) الروم / ٧.

الدرس الثامن

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾

وفي الآية الكريمة عدة بحوث:

البحث الأول: في تقديم «إياك» في الآية الكريمة.

فأول وجه لتقديمها هو إرادة الحصر فيه تعالى، فهو المعبود دون سواه، ولو قدمت العبادة، وآخر الضمير لما دلت الآية الكريمة على حصر العبادة فيه أصلاً.

والأمر الثاني الذي قدم الضمير لأجله هو أن العابد لابد له أن يعرف المعبود أولاً ثم يتوجه له بالعبادة ثانياً، إذ أن العبد عندما يتعرف على المعبود، وعلى ما فيه من صفات الجمال والكمال فإنه يستلذ بالعبادة ويستأنس بها.

والأمر الثالث هو:

أن الشيطان دائم الوسواس للعبد، فهو تارة يريد أن يصرفه عن العبادة، وأخرى يريده أن يعبد غير الله، وتتأكد وساوسه للعبد عندما يريد الصلاة.

ففي هذا الظرف العصب على العبد تأتي الآية الكريمة إياك نعبد لتعدد المعبود وتمحضه في الله تعالىٰ ومن ثم يتوجه بالعبادة له فلا يعبد سواه، وتخيب عندها كل آمال الشيطان، ومكائده فالآية الكريمة لا تقول أعبد أولاً ثم حدد المعبود، بل حدده أولاً ثم اعبده.

والأمر الرابع هو:

أن العبادة تتكون من عدة أمور هي عبارة عن العبادة، والعابد، والمعبود، ولكي يتحقق التوحيد الحق من العبد لابد له أولاً أن يحلظ المعبود، ويلحظ بقية الأمور من العبادة، والعابد فانيه في المعبود فلذا قدم المعبود أولاً بإياك في هذه العلاقة الثلاثية، ليتحقق التوحيد الخالص الحق، قال تعالى:

﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾[2] فقدم المعبود على نفسه لأنه لا يرىٰ غيره.

البحث الثاني: في سر الالتفات في الآية الكريمة والتحول من الغيبة إلىٰ الخطاب.

فإن الوجه في ذلك هو عبارة عن أنه تعالىٰ قد تحدث في الآيات المتقدمة عن الأدلة الدالة على حمده تعالىٰ وشكره، أي أنه محمود لأنه الله، ولأنه رب العالمين، ولانه رحمان رحيم، ولأنه مالك يوم الدين فاذا

---

(١) فصلت / ٥٣.

(٢) التوبة / ٤٠.

كان كذلك فلا ينبغي التردد في عبادته، والاستعانة به وحده لاشريك له.

فإن العبد إذا أدرك عظمة هذه الاسماء والصفات، وعلو مرتبتها، فإنه لاشك حينئذٍ يلتفت من الغيبة إلىٰ الحضور، فينادي ربه بإياك نعبدك، وإياك نستعين، محافظاً على جهة الوحدة في المعبود، بقوله إياك، وعلى جهة الكثرة في العابد بقوله نعبد إذ يقول تعالى: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾[1]

فهنا تتحقق المشاهدة الحقة الحقيقية للتوحيد.

البحث الثالث: في العبادة

الطريق الوحيد للتقرب لله تعالىٰ هو طريق العبادة والعبودية لله تعالىٰ لا طريق سواه، إذ أنه هو الطريق الذي طرقه الله لعبيده، فيه يصلون إليه، ومن خلاله يحصلون على كمالاتهم، وبه يحققون التوحيد العبادي الذي دعى الانبياء جميعهم إليه.

فقال تعالى: ﴿**وإلىٰ عاد أخاهم هوداً، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾[2]

فحصرت الآية الكريمة العبادة في الله تعالى، وأنه هو الاله لا إله سواه، وهكذا في حركة الانبياء كلهم تتكرر هذه الآية الكريمة.

وقال تعالىٰ في خطابه لنبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم: ﴿**قل الله**

---

(١) مريم / ٩٣.

(٢) الاعراف / ٦٥.

أعبد مخلصاً له ديني﴾(١) فلسان هذه الآية كلسان قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين. إذ قدم لفظ الجلالة فيها وأكدت بعده بكلمة مخلصاً.

فإذا كان الطريق الوحيد للوصول إلىٰ الله هو العبادة له، فإن عبادة غيره لا تكون إلا بعده عنه تعالى، لذلك فقد حذر تعالىٰ من عبادة النفس والهوىٰ اللذان هما أعدىٰ أعداء الانسان، وكذلك حذر من عبادة الشيطان. فقال عز من قائل: **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم وختم على سمعه، وقلبه، وجعل على بصره غشاوة﴾**(٢)

فهذه الآية تحذر من عبادة الهوىٰ الذي هو عامل قريب لاغواء الانسان، واضلاله وكذا قال تعالى: **﴿ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**(٣)

وهذا تحذير من العدو البعيد في مقابل العدو القريب الذي هو النفس والهوى، لذلك فان العابد لغير الله مهما كانت عبادته فإنها لا تخرج عن إحدىٰ هاتين العبادتين، ولذا قال تعالىٰ لمن يعبد شيئاً منهما: **﴿أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾**(٤)

ولكن إذا آمن الانسان بالله تعالىٰ وعمل صالحاً لوجهه، فإنه يوفقه إلىٰ عبادة خالصة لا مجال للشرك فيها أصلاً.

قال تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات**

---

(١) الزمر / ١٤.
(٢) الجاثية / ٢٣.
(٣) يس / ٦٠.
(٤) الانبياء / ٦٧.

ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾[١]

فكما أن قوله إياك نعبد سلب لجميع أنواع الشرك، فإن هذه الآية تقرير لذلك المعنى في قوله «لا يشركون بي شيئاً».

وحيث أن الشرك منفي بشكل مطلق فإن الآية الكريمة عقبت قوله تعالى: إياك نعبد بقوله تعالىٰ وإياك نستعين حتى لا يتوهم أن عبادته تعالىٰ من قبل العبد على نحو الاستقلال، بل حتى في العبادة هو مستعين بالله فلا يشرك بالله أحداً لا في العبادة، ولا في الاستعانة عليها.

البحث الرابع: في أن العبادة هدف الخلقة:

قال تعالى: **﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[٢]**

فالآية الكريمة تشير إلىٰ أن الهدف من الخلقة هو العبادة، ولكن هذا الهدف لا يمثل كمالاً في المعبود بل يمثل كمالاً في العابد. وذلك لأنه تعالىٰ يقول:

﴿وقال موسى أن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً، فإن الله لغني حميد﴾[٣]

فالآية تشير إلىٰ الهدف الفعلي أي الراجع للخلق انفسهم لا

---

(١) النور / ٥٥.

(٢) الذاريات / ٥٦.

(٣) ابراهيم / ٨

الهدف الفاعلي الراجع للخالق تعالى.

وأما الحديث المروي: «**كنت كنزاً مخفياً، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف**»(١)

فإما أنه لا أصل له في الأحاديث القدسية، وأما أن تحمل على أن المراد من المعرفة هي المعرفة التي بها يتكامل الانسان، ويرقى، لا أنه تعالىٰ بحاجة إلىٰ معرفة البشر له، لأنه كما يقول عن نفسه تبارك وتعالى: ﴿**هو الأول والآخر، والظاهر، والباطن**﴾(٢) فلا هدف سواه فهو معروف عند ذاته، ولا يحتاج إلىٰ معرفة غيره له، وإن البشر عندما يعرفون أنني إلههم يتكاملون بالمعرفة.

وحيث أن الخلقة موجودة في كل لحظة، فإن العبادة يجب أن تكون في كل لحظة كذلك لأنها هدف الخلقة، ومع ذلك فإنها هدف نسبي لا هدف مطلق.

يقول تعالى: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾(٣) فلا يتحقق اليقين إلا بالعبادة ـ وإن كان أحد مصاديق اليقين هو الموت إلا أنه غير مقصود في المقام ـ وكذلك ليس المقصود منه اليقين المقابل للظن الحاصل من رؤية الآيات كما في قوله تعالى: ﴿**وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾(٤)

---

(١) تفسير صدر المتألهين ج ٤ ص ٢٥٨.

(٢) الحديد / ٣.

(٣) الحجر / ٩٩.

(٤) النمل / ١٤.

بل المقصود منه الحالة النورانية الحاصلة من القرب الحاصل من العبادة، وهذه لا تقف عند حد، فما دام الانسان موجوداً فلابد له من العبادة حتى يحصل أرقى مراتب القرب واليقين.

البحث الخامس: في قوله إياك نستعين فإنه أيضاً يدل على حصر الاستعانة فيه سبحانه وتعالىٰ بقرينة تقديم الضمير على الفعل، ونكتة التقديم هنا نفسها المتقدمة.

وحيث أن العبادة لها درجات مختلفة فكذلك الاستعانة أيضاً، فإذا ارتقى الانسان في عبادته لله تعالى، فإنه يرتقي كذلك في الاستعانة الىٰ أن تصل مرحلة الاستعانة إلىٰ مرحله الولاية، ويكون عندها: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾[1]

وأما قوله تعالى: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة، ان الله مع الصابرين﴾[2]

فلا تنافي بينها وبين اطلاق إياك نستعين لأن الاستعانة بالعبادات هي استعانة ببعض شئونه تبارك وتعالىٰ إذ كل موارد الاستعانة هي استعانه بفعله تبارك وتعالى.

---

(١) البقرة / ٢٥٧.

(٢) البقرة / ١٥٣.



الدرس التاسع

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾

تنقسم سورة الفاتحة المباركة إلىٰ قسمين:

الأول: الحمد والثناء والتعظيم، والتوحيد في العبادة، والتوحيد الافعالي في الآيات الخمس الأول من البسملة إلىٰ قوله اياك نعبد واياك نسعين.

الثاني: مسألة العبد من ربه أن يهديه صراطاً مستقيماً، وهو قوله تعالى: إهدنا الصراط المستقيم والتعبير بالجمع في اهدنا أي السائل وكل موجودات عالم الامكان تطلب الهداية من الله للصراط المستقيم.

وفي الآية الكريمة بحوث متعددة أهمها ما يلي:

البحث الأول: في معنى الهداية:

الهداية تارة تطلق ويراد بها إراءة الطريق، وأخرىٰ يراد بها الايصال الىٰ المطلوب والهداية بالمعنى الأول عادة تقابل بالعمى، وبالمعنى الثاني تقابل بالضلال.

قال تعالى: **﴿وأما ثمود فهديناهم، فاستحبوا العمى على الهدى**

فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾[١]

فالهداية في الآية ليست بمعنى ايصالهم إلىٰ المطلوب، وإنما هي بمعنى إراءة الطريق من خلال بعث النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وانزال الكتاب عليه لتبليغهم، ودعوتهم إلىٰ الله، والعمى في الآية يقصد به مرض القلب الذي لا يجعل صاحبه من المهتدين.

يقول تعالى: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الابصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾**[٢]

البحث الثاني: في تقسيم الهداية إلىٰ تشريعية وتكوينية:

الهداية التشريعية هي عبارة عن دعوة الانسان إلىٰ العمل بالشرائع الالهية التي جاءت بها الانبياء من خلال ما فيها من الأوامر إلىٰ الفضائل، والنواهي عن الرذائل بعد أن زود الله الانسان ما به يدرك المصالح من المفاسد، ويميز الضار من النافع مع ترك حق الاختيار إليه دونما جبر وقهر، وهذه الهداية هداية عامة لكل الناس بلا استثناء. اذ هي إراءة طريق السعادة والدعوة إليه وتبيين طريق الهلاك والتحذير منه، فإن اهتدىٰ الانسان بها نجى، والا فقد هلك وهذه الهداية هي المشار اليها بقوله تعالى: **﴿وإنك لتهدي إلىٰ صراط مستقيم﴾**[٣]

---

(١) فصلت / ١٧.

(٢) الحج / ٤٦.

(٣) الشورىٰ / ٥٢.

﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾[١]

وأما الهداية التكوينية فهي عبارة عن نحوٍ من التوفيق الالهي الواصل لكل المخلوقات سواءٌ الانسان أو الحيوان أو الجماد كما يقول تعالى: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[٢]

وفي مقام بيان انحاء هذه الهداية يقول تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر، ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات، فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾[٣]

وكذلك في حركة الماء في الطبيعة: ﴿فسلكه بنابيع في الأرض﴾[٤] ﴿وما أنتم له بخازنين﴾[٥]

والهداية التكوينية بالنسبة للانسان هي ذلك التوفيق الالهي المترتب على مجاهدة الانسان لنفسه وعمله بما تعلمه من التكاليف الالهية حيث أنه تعالىٰ يجعل هذا التوفيق جزاء للانسان لاستجابته لداعي الله تعالىٰ وفي هذا المجال الكثير من الآيات.

يقول تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾[٦]

أي أن من يستجيب للهداية التشريعية، ويعمل بمقتضاها، فإنه تعالىٰ يجربه على ذلك أن يبصره بحقيقة الامور من خلال الهداية القلبية

---

(١) السجدة / ٢٤.

(٢) طه / ٥٠.

(٣) النحل / ٦٨.

(٤) الزمر / ٢١ .

(٥) الحجر / ٢٢.

(٦) التغابن / ١١.

فيعرفه الاشياء على حقائقها، ذلك أن قلبه قد استنار بنور الله تعالى فصار ملازماً لطاعته منزجراً عن معصيته، ولا يزال يرتقي حتى يكون كما قال تعالى: ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾(١)

وكذلك يقول تعالىٰ في الهداية التوفيقية أو التكوينية: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾(٢)

﴿والذين اهتدوا زادهم هدىً وأتاهم تقواهم﴾(٣)

وعلى كلٍ فالهداية التكوينية لا اختيار للانسان فيها، وإن كان مختاراً في تحصيل مقدماتها الىٰ الهداية التشريعية، فهي مقدمة للهداية التكوينية.

البحث الثالث: حول من هو الهادي؟

المستفاد من الآيات الكريمة أن الهادي بالأصالة وبالذات هو الله تعالى، ولا يوجد غيره كذلك، وإذا وجد من يهدي فإنه انما يهدي ثانياً وبالعرض وبالتبعية قال تعالى: ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق، قل الله يهدي للحق أفمن يهدي الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدّي الا أن يهدى﴾(٤)

فهذه الآية برهان على أن الهادي بالذات أحق بالاتباع من غيره،

---

(١) الانعام / ١٢٢.

(٢) العنكبوت / ٦٩.

(٣) محمد / ١٧.

(٤) يونس / ٣٥.

وعليه فإن الآيات التي تثبت الهداية لغيره أو من غيره تعالىٰ فإنها كما قلنا بالعرض وبالتبع لا بالذات.

كما في قوله تعالى: **﴿إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم﴾**[1]

وهداية القرآن للتي هي اقوم ليست لأنه قرآن، بل لأنه من عند الله والهادي بالذات.

وكذلك في قوله تعالى: **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾**[2]

لذلك يقول تعالى: **﴿وجلعنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾**[3]

ومما تقدم نستكشف أن طلب الهداية منه تعالىٰ عبارة عن طلب الهداية من المهتدي بالذات لأنه تعالىٰ رب العالمين، ولانه رحمان رحيم، ومالك ليوم الدين فهو الواهب للهداية للعالمين.

البحث الرابع: في معنى الهداية في الآيه الكريمة، وفي معنى الصراط.

الهداية المقصودة في قوله تعالىٰ أهدنا الصراط المستقيم هي الهداية التكوينية لا التشريعية إذ أن هذا خطاب الانسان الذي آمن بالله تعالى، فهو في كل صلاة يسأل الله تعالىٰ من هذه الهداية، بمعنى أنه

---

(١) الاسراء / ٩.

(٢) الاعراف / ١٥٩.

(٣) السجدة / ٢٤.

يطلب منه تعالىٰ أن ينور قلبه بنوره الذي يبصر به حقائق الأمور، وخفاياها، ويطلب منه في كل مرة يقرأها أن يزيده من ذلك الهدى الذي يجعله في أرقى مراتب القرب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿**وإن الله لهاد الذين آمنوا إلىٰ صراط مستقيم**﴾(١)

وقال في خطابه لرسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ﴿**ويهديك صراطاً مستقيماً**﴾(٢) وقال: ﴿**وهدوا الىٰ الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد**﴾(٣).

وأما الصراط: فهو الطريق المصون عن الاعوجاج، وقد افصحت عنه بعض الآيات وعرفته بأنه هو الدين، قال تعالى: ﴿**قل إنني هداني ربي إلىٰ صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً**﴾(٤)

وقد عبر عنه تعالىٰ في آية أخرىٰ أنه صراط الله تعالىٰ فقال:

﴿**الر، كتاب انزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور بإذن ربهم إلىٰ صراط العزيز الحميد، الله ...**﴾(٥)

ومن خصائصه أنه واحد لا يثنى ولا يجمع، ففي كل مورد ذكر في القرآن، فانه مفرد، وإن وصف بأوصاف مختلفة كالمستقيم كما في سورة الفاتحة أو في الآيات المتقدمة، وكذلك صراط الله.

ويوصف بالسوي كما في قوله تعالى: ﴿**فستعلمون من أصحاب**

---

(١) الحج / ٥٤.
(٢) الفتح / ٢.
(٣) الحج / ٢٤.
(٤) الانعام / ١٦١.
(٥) ابراهيم / ١.

الصراط السوي، ومن اهتدى﴾[1]

ولما كان هذا الصراط مستقيماً، وسوياً، وكان صراط الله العزيز الحميد، فإنه تعالىٰ قد أرشد إلىٰ أتباعه، فقال تعالى: **﴿وإن هذا صراطي مستقيماً، فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾**[2]

وذلك لأن كل انسان مهما كان فإنه في سلوك وحركة إلىٰ الله تعالى كما في قوله تعالى: **﴿يا أيها الانسان إنك كادح إلىٰ ربك كدحاً فملاقيه﴾**[3]

غاية الأمر إن هذه الحركة، أو هذا السلوك يكون في احد خطين، إما في خط السخط وإما في خط الرضا، قال تعالى: **﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه، فسوف يحاسب حساباً يسيراً، وينقلب إلىٰ أهله مسروراً، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره، فسوف يدعو ثبوراً، ويصلى سعيراً﴾**[4]

فهنا هدف، وسالك، وطريق، فأرشد تعالىٰ السالك أن يسلك صراطه المستقيم دون بقية السبل التي تفترق عن هذا السبيل ويضل صاحبها عنه.

وقد فسرت بعض الروايات الصراط المستقيم بأنه الإمام عليه السلام أو الاسلام، ولكنها من باب الجري أي أنها تحاول ذكر

---

(١) طه / ١٣٥.

(٢) الانعام / ١٥٣.

(٣) الانشقاق / ٦.

(٤) الانشقاق / ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢.

المصاديق، وإلا فإن الصراط هو الطريق الواسع العظيم، وهو واحد فقط لأنه من عند الله والى الله فلا اختلاف ولا تخلف ولا تناقض فيه.



الدرس العاشر

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

لقد اسندت الآية الكريمة الصراط إلىٰ الذين أنعم الله عليهم، أي أسندت الصراط للسالكين بمعنى أن السالك والصراط شيء واحد بناءاً على أن وجود الصراط إنما هو وجود بالقوة، وإنما السالك يخرجه من قوته إلىٰ فعليته فيتحد معه، ويتصف به.

بيان ذلك:

أن قطع المسافة لا استقلال له في التحقق وإنما تحقق بالشخص القاطع له والمتحرك فيه، وهذا معناه أن المسافة قبل تحرك المتحرك كانت موجودة بالقوة، فلما تحرك المتحرك وقطعها، فإنه قد أخرجها من القوة الىٰ الفعلية والتحقق.

فكذلك الحال في الحركة الاعتقادية، والعملية، والاخلاقية، فإن مفرداتها ليست جزئيات لها استقلالية في التحقق والوجود، وطالبها له وجود وآخر بحيث أنه متى ما أراد الاتصاف بها جاءها، وأضافها إلى نفسه وتزين بها على نحو الاضافة المقولية، وإنما هي موجودة فيه بالقوة، ومضافة إليه على نحو الاضافة الاشراقية غاية الأمر أنه بتواضعه قد أخرج التواضع من حيز القوة والاستعداد إلىٰ حيز التحقيق والفعلية، وبعدالته أخرج العدالة من فضاء القوة إلىٰ واقع التحقق.

وبعبارة أخرىٰ بحركته أوجد مفردات الاعتقادات والاخلاق في الخارج، وعليه فلا معنى لهذه الأمور إلا من حيث كونها منتزعة من مقام فعل السالك، فإنه إذا أخرج كل المفردات الممثلة للصراط من نطاق القوة إلىٰ الفعل، فإنه حينئذٍ يكون هو الصراط، لذا فقد ورد عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام قولهم: «نحن الصراط المستقيم».

ولما كان الصراط المستقيم هو الدين كما تقدم في آية سورة الانعام، والدين مجموعة قوانين وأحكام، فإنها لا تتحقق هذه القوانين والاحكام إلا من خلال العمل بها، والعمل بها اخراجها من القوة إلى الفعلية والتحقق، والمخرج لها هو المتدين بحركته وسلوكه فقد اتحد السالك بالصراط.

وإذا أردنا تقريب المسألة أكثر فإن اللون والرئحة في التفاحة لاشك في كونهما متحدان معها، وهذا الاتحاد ليس شيئاً سوىٰ خروج هذه الاعراض من القوة إلىٰ الفعلية بوجود التفاحة. ومع ذلك فإن الاتحاد واضح، مع أن الحركة هاهنا ليست حركة جوهرية بل هي حركة عرضية،

وعندما تكون الحركة جوهرية فإن الاتحاد والاتصال أقوىٰ وأكبر كما هو الحال بين السالك والصراط. غاية الأمر أن هذا السالك يحتاج إلىٰ نية، وإرادة، وعلم، وهذه الصفات من شأنها أن تقوى وتتأكد حتى تصير إلىٰ حد الملكة، وحينها يكون الصراط والسالك شيئاً واحداً، ولذلك ورد في الاخبار كما في كتاب معاني الأخبار:

«باسناده إلىٰ المفضل بن عمر، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الصراط، فقال هو الطريق إلىٰ معرفة الله عز وجل، وهما صراطان صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا، واقتدىٰ بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط فتردىٰ في نار جهنم»[1]

وأما الروايات الواردة في الباب فإنها تذكر مصاديق الصراط[2]

قوله: صراط الذين أنعمت عليهم:

فكأن العبد بعد أن سأل الهداية إلىٰ الصراط أجابه الحق، وأي صراط فقال المستقم، ثم أجابه أي مستقيم، فقال صراط الذين أنعمت عليهم، وإنما صار الصراط المستقيم هو صراط الذين أنعم الله عليهم بواسطة فيضه تعالىٰ ونعمته عليهم إذ أن الوصف غالباً يكون مشعراً بالعلية.

---

(١) نور الثقلين /ج ١ / ص ٢١ في تفسير اهدنا صراط المستقيم.

(٢) المصدر السابق.

وهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم هي نعمة الوصول من خلال الصراط المستقيم، ولذلك جاء بعد قوله تعالى ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾.

ثم أنه تعالىٰ بين في آية أخرىٰ واقع الذين انعم عليهم، فقال تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن اولئك رفيقاً**﴾(١)

ثم أنه تعالىٰ بين أن الصالحين يتولاهم الله فقال: ﴿**إن وليي الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولىٰ الصالحين**﴾(٢)

وأما النعمة فقد قال تعالىٰ عنها:

﴿**وما بكم من نعمةٍ فمن الله**﴾(٣)

﴿**واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾(٤)

﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾(٥)

والنعمة التي يطلبها المؤمن في سورة الفاتحة هي النعمة الباطنة لا الظاهرة لأن النعمة الظاهرة يستوي فيها الخلق جميعهم حتى المغضوب عليهم، وحتى الضالين مع أن الآية قالت صراط الذين أنعمت عليهم لا الذين غضب عليهم أو الضالين.

والنعمة الباطنة هي نعمة طي الطريق للوصول إلىٰ الله تعالىٰ في

---

(١) النساء / ٦٩.

(٢) الاعراف / ١٩٦.

(٣) النحل / ٥٣.

(٤) لقمان / ٢٠.

(٥) النحل / ١٨.

خط الرضا، ولو لم تكن خصوص النعمة الباطنة لا الظاهرة لدخل في ضمن المنعم عليهم من عناه الله تعالىٰ بقوله: ﴿وإذا انعمنا على الانسان أعرض، ونأىٰ بجانبه﴾ (١)

مع القطع بخروجه عن الصراط المستقيم اذ هو معرض عن الله، فالمقصود من المنعم عليهم بالنعم الباطنة خصوصاً، لا مطلقاً.

وقد نقل الاستاذ حفظه الله عن استاذه السيد العلامة الطباطبائي رحمه الله بأن النعمة عند الاطلاق تنصرف إلىٰ نعمة الولاية، كما في قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ (٢)

وكما في قوله تعالى: ﴿لتسئلن يومئذٍ عن النعيم﴾ (٣)

فالخلاصة أن النعمة التي أنعم الله بها على أصحاب الصراط المستقيم هي خصوص النعمة الباطنية التي ينقلب الانسان المؤمن إلى الله في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر.

قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

المغضوب عليهم أو الضالون هم كل منحرف عن صراط الله المستقيم كائناً طريقه أي طريق، والروايات التي طبقت المغضوب عليهم ولا الضالين على اليهود والنصارىٰ فهي من باب الجري.

نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا من اصحاب الصراط المستقيم من

---

(١) الاسراء / ٨٣.

(٢) المائدة / ٣.

(٣) التكاثر / ٨.

الذين أنعم الله عليهم لا معهم فحسب بل منهم، و أن يحفظنا عن أن نكون من المغضوب عليهم أو الضالين إنه على كل شيء قدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

